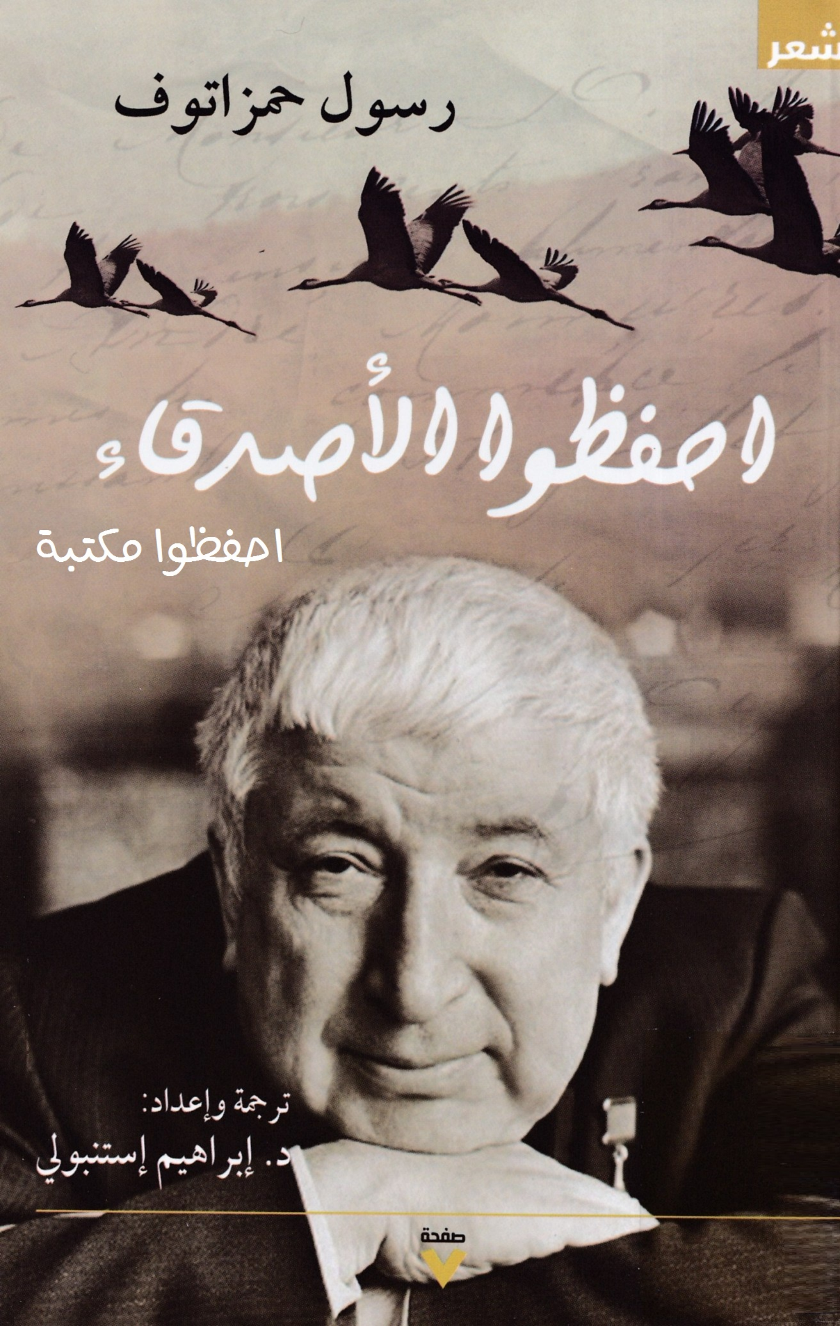

شعر
رسول حمزاتوف
احفظوا الأصدقاء
احفظوا مكتبة
ترجمة وإعداد:
د. إبراهيم إستنبولي
صفحة
7

RASUL GAMZATOV

رسول حمزاتوف

احفظوا الأصدقاء



ترجمة وإعداد: د. إبراهيم إستنبولي





الكتاب
احفظوا الأصدقاء

المؤلّف
رسول حمز اتوف

الطّبعة الأولى:2022
التّرقيم الدّوليّ
978-603-91777-3-9
رقم الإيداع
1443/5525

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

الإهداء

إلى أجمل قصيدتيَن:

ابني شيراز

وابنتي راشيل

تنويه

جميع الحواشي والهوامش للمترجم

الفهرس

I. «عقيدة» رســول 9

II. نبذة عن حياة الشاعر 11

III. شهادات وآراء 17

IV. دستور الجبال 21

V. قصائد مختارة 39

1) اِحفظوا الأطفال 41

2) الغرانيق..44

3) قلبي في الجبال..46

4) داغستان بلدي 50

5) صونوا أصدقاءكم..53

6) ما الذي بقي، أخيرًا؟ 55

7) رسالة من بيروت إلى جنكيز أيتماتوف 59

8) إذا كان ألفُ رجل في العالم 66

9) أغنية عن الحب 68

10) للأزهار عيون 70
11) ليحيا عالمُ النور...72
12) أخي البكر – جنديٌ 73
13) كثيراً ما أحسَبُ... 74
14) شكرًا..75
15) أغنية..77
16) لم تعرفي منافسات لكِ أبدًا ... .79
17) لِوَجهِ الحقيقة 81
18) أنا – كلب الحراسة لداغستان...................................83
19) خمس مواعظ 84
20) عبثاً عرفتُ الحميّةَ 87
21) إلى شاعر شاب 90
22) الموتُ لن يقتربَ مني 92
23) حبيبتي، أنا أطلبُ الصفحَ من جديد، 96
24) أحبُّك، يا شعبي الصغير 97
25) ورود شيراز..99
VI. عام مولدي 101
VII. ثمانيات..155

VIII. رباعيات 160
IX. من كتابات محفورة على الأبواب والبوابات 164

«عقيدة» رسـول

كلُّنا سنموت، لن نعيشَ إلى الأبد،
هذا معروفٌ وليس بجديد.
لكننا نحيا كي تبقى لنا ذكرى:
بيتٌ أو طريق، كلمةٌ أو شَجَرَةْ.

لن تنضبَ جميعُ الجداول،
والألحانُ لا تموت كلُّها مع الوقت،
فالمجدُ يُعلي اسمَنا بالأغنية،
مثلما تضاعفُ الجداول في قوة النهر.

***

داغستان، يا ملحمتي، كيف لي
أنْ لا أصلّي من أجلك،
أنْ لا أحبّك،
وهل يمكنني أن أطير بعيدًا
عن سرب الغرانيق في سمائك؟
داغستان: سأتقاسمُ بالعدل معك
كلَّ ما وهَبهُ الناس لي،

وسأعلّق أوسمتي وجوائزي

على قممك.

سأكرّس لك الأناشيدَ العالية

والكلمات وقد صيغت أشعارًا،

اهدني فقط «رداء [1]» الغابات

وباباخا[2] الجبال الثلجية!

إلامَ أتوقُ أكثر من أي شيء؟

لقد عشتُ عمري،

فما الذي يمكنني أن أتمنى

سوى نزعةٍ إلى الحبِّ؟

تلك كانت إرادتي الأولى والأخيرة.

دعِ الحياةَ تعلنُ حكمَها في ساعة الحساب،

فأنا قلتُ وفعلتُ

كلَّ ما استطعت!

---

(1)- سترة قوقازية مصنوعة من اللباد يلبسها الفارس وتُعتبر زيًّا مميزًا لشعوب منطقة القوقاز وقد جاء هنا كناية عن الغابات الساحرة التي تكلل قمم الجبال في داغستان.

(2) باباخا – قبعة عالية مصنوعة من الصوف يضعها الرجال عادة في القوقاز الشمالي وقد أراد الشاعر تشبيه الثلوج على قمم الجبال بغطاء الرأس الفلكلوري في داغستان.

نبذة عن حياة الشاعر

وِلِدَ رسول حمزاتوفيتش حمزاتوف في الثامن من أيلول عام 1923 في قرية تسادا من ناحية هونزاخ في جمهورية داغستان ذات الحكم الذاتي السوفييتية (إحدى جمهوريات الاتحاد الروسي حاليًّا)، في عائلة شاعر الشعب الداغستاني، الحائز على جائزة الدولة للاتحاد السوفييتي، حمزة تساد أسا. تلقّى تعليمه الابتدائي في مدرسة أرانيا وفي معهد التربية الآفاري. بعد تخرجه من المعهد عمل مدرساً، ومساعد مخرج في المسرح الآفاري الحكومي، ثم مراسل ورئيس قسم في جريدة «بلشفيُّ الجبال»، ومحرر برامج راديو داغستان باللغة الآفارية. في أعوام 1945 ـ 1950 تابع تعليمه في معهد غور كي للآداب في موسكو، وبعد تخرجه منه تم تعيين رسول حمزاتوف رئيسًا لاتحاد كتاب داغستان، حيث ظلَّ يعمل في هذا المنصب حتى وفاته.

بدأ رسول حمزاتوف كتابة الشعر في التاسعة من عمره. ثم راح ينشر أشعاره في جريدة «بلشفي الجبال» التي كانت تصدر باللغة الآفارية وكانت تُوزَّع في أنحاء داغستان. أصدر أوَّل مجموعة شعرية باللغة الآفارية عام 1943 . وكان عمره عشرون عامًا فقط عندما انتخب عضوًا في اتحاد الكتاب لعموم الاتحاد السوفييتي. صدرت له منذ ذلك الحين عشرات الكتب في الشعر والنثر والأدب الاجتماعي، وفي مختلف اللُّغات: في داغستان وجمهوريات القوقاز ومختلف بلدان العالم، ومنها: «قلبي في

الجبال»، «النجوم العالية»، «حافظوا على الأصدقاء»، «الغرانيق»، «حكايات»، «عجلة الحياة»، «عن الأيام العصيبة في القوقاز»، «داغستان بلدي»، «احكمْ عليَّ بقانون الحب»، وغيرها الكثير من الكتب التي نالت شعبية واسعة جدًّا.

وقد قام بترجمة أشعار رسول حمزاتوف وقصائدهِ إلى اللغة الروسية أدباء كبار وأساتذة مشهود لهم بالكفاءة والجدارة من أمثال ايليا سيلفينسكي وسيرغي غوروديتسكي وسيمون ليبكين وغيرهم. وكانت مثمرة جدًّا على الخصوص علاقة التعاون والعمل المشترك بينه وبين أصدقائه الشعراء من أمثال: نعوم غريبنيف، ياكوف كزلوفسكي، ايلينا نيكولايفسكايا، روبرت رجديستفينسكي، اندريه فوزنيسينسكي، مارينا أحميدوفا وغيرهم. أما رسول حمزاتوف فقد ترجم إلى اللغة الآفارية أشعار وقصائد كل من بوشكين وليرمنتوف، نيكراسوف وبلوك، مايكوفسكي، يسينين، شيفشينكو وغيرهم.

تم تحويل الكثير من أشعار رسول حمزاتوف إلى أغاني. وقام بتلحينها عدد من أفضل الملحنين المعروفين في عموم أنحاء الاتحاد السوفييتي نذكر منهم: كاباليفسكي، فرينكل، رايموند باولس، الكسندرا باخموتوفا، محمد قسوموف وأحمد تسورميلوف وغيرهم. كما قام بأداء تلك الأغنيات فنانون ومطربون معروفون جدًّا في الاتحاد السوفييتي السابق وفي روسيا الحالية: آنّا هيرمان، مسلم ماغماييف، يوسف كَبْزون، فاليري ليونتيف، صوفيّا روتارو، فاختانغ كيكابيدزه وآخرون.

حصل رسول حمزاتوف على أوسمة وجوائز كثيرة وذلك لقاء إنجازاته الرائعة وخدماته الجليلة في مجال الأدب. وقد تم منحه الأوسمة وشهادات التكريم على مستوى كل من جمهورية داغستان وروسيا والاتحاد السوفييتي السابق. من بينها: لقب شاعر الشعب في داغستان، بطل العمل الاشتراكي، جائزة لينين، جائزة روسيا والاتحاد السوفييتي، الجائزة الدولية «شاعر القرن العشرين»، جائزة اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا «اللوتس»، جائزة جواهر لال نهرو، جائزة الفردوسي، جائزة كريستو بوتيف البلغارية، وكذلك جوائز شولوخوف، وليرمنتوف، وفادييف، وباتيراي، وجائزة مدينة تسادأسا وغيرها. وفي عام 2003 وفي عيد ميلاده الثمانين قام الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بتقليده أرفع وسام في روسيا الاتحادية – وسام القديس أندريه (أندراوس).

أنتُخِب رسول حمزاتوف نائبًا في مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية داغستان، ثم نائبًا لرئيس مجلس السوفييت الأعلى للجمهورية، ثم نائبًا وعضوًا في رئاسة مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي. وكان على مدى عقود مشاركًا في مؤتمرات اتحادات الكتاب في كل من داغستان وروسيا والاتحاد السوفييتي، وكذلك عضوًا في مكتب التضامن لكتاب بلدان آسيا وأفريقيا، عضو لجنة جوائز لينين والاتحاد السوفييتي، عضوًا في اللجنة السوفييتية للدفاع عن السلم، نائبًا لرئيس لجنة التضامن الآفروآسيوية، عضو هيئة التحرير في كل من مجلة «العالم الجدي»، و«الصداقة بين الشعوب»، وصحيفة «الجريدة الأدبية»، و«روسيا الأدبية» وغير ذلك من الصحف والمجلات. لقد نال: وسام لينين ـ أربع مرات، وسام ثورة أكتوبر، وسام الراية الحمراء في العمل، وسام الصداقة

بين الشعوب، وسام «من أجل الوطن»، وسام بطرس الكبير، الوسام البلغاري كيريل وميفوديا، والكثير من ميداليات الاتحاد السوفييتي.

تم تنظيم الكثير جدًّا من الأمسيات والحفلات الشعرية بمشاركة رسول حمزاتوف في مختلف مسارح مدن الاتحاد السوفييتي السابق وخصوصًا العاصمة موسكو وفي مختلف بلدان العالم: صوفيا، وارسو، برلين، بودابست. وتم إخراج باليه مستوحاة من الأعمال الشعرية لرسول حمزاتوف على خشبة مسرح الأوبرا والباليه في لينينغراد، كما تم إخراج مسرحية على أساس كتاب «**داغستان بلدي**» على خشبة المسرح الساخر في بطرسبورغ. وقد تم تصوير أفلام وثائقية وتلفزيونية عن حياة وإبداع شاعر الشعب رسول حمزاتوف. منها: «قوقازيٌّ أصله من تسادا»، «الغرانيق البيضاء»، «رسول حمزاتوف وجورجيا»، وغيرها. كما تم إخراج فيلمين سينمائيين على أساس أعماله: «امرأة جبلية» و«حكاية هجبار الشجاع».

زار رسول حمزاتوف الكثير من بلدان أوروبا، وآسيا، وأفريقيا وأمريكا. كما حلَّ رسول حمزاتوف ضيفًا على الكثير من المسؤولين والشخصيات الحكومية المعروفة بمن فيهم ملوك ورؤساء، وعند كتاب وفنانين كثر. وزار بيته في آول[1] تسادا وفي ماخاتشكالا (محج قلعة) – عاصمة جمهورية داغستان – الكثير من الضيوف والمشاهير من كل أنحاء العالم.

كانت عائلة رسول حمزاتوف مؤلفة من: زوجته فاطمة أو فاتمات التي توفيت عام 2000، وثلاث بنات وأربع حفيدات. توفي والده في عام

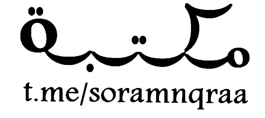
1951 . وتوفيت والدته عام 1965 . استشهد أخاه الكبيران في ساحات القتال في الحرب الوطنية العظمى. أما أخوه الأصغر حاجي حمزاتوف وهو عضو أكاديمية العلوم الروسية – فما زال يعيش في ماخاتشكالا.

في الثالث من تشرين الثاني من عام 2003 توقف قلب الشاعر رسول حمزاتوف عن الخفقان. وقد تم دفنه في ماخاتشكالا في مقبرة تقع عند سفح جبل تاركي – تاو بجوار قبر زوجته فاطمة.

بعد رحيل الشاعر بات تقليدًا سنويًّا ما يعرف بِمهرجان «الغرانيق البيض» الذي أطلقه وأشرف على فعالياته رسول حمزاتوف حتى وفاته. ووفاء من داغستان شعبًا وحكومة تابع اتحاد كتاب داغستان بمثابرة من قبل رئيس اتحاد كتاب داغستان الشاعر ماغوميد أحميدوف – التلميذ النجيب والوفي ل رسول حمزاتوف، ومعه شعراء داغستان الكبار من أمثال مارينا أخميدوفا – كاليوباكينا وهي من أروع شعراء روسيا ومن أهم مترجمي أشعار رسول حمزاتوف من لغته الأصل – الأفارية إلى اللغة الروسية... وآخرين – المهرجان نشاطاته السنوية بانتظام. ففي كل عام يتوافد شعراء ومترجمون وكتاب من شتى أنحاء روسيا ومن بلدان الفضاء السوفييتي السابق ومن بلدان أجنبية، بما في ذلك من بلدان عربية، إلى عاصمة داغستان محج قلع، حيث تنطلق فعاليات المهرجان في يوم ميلاد رسول حمزاتوف بمشاركة رسمية وشعبية. وتتضمن الفعاليات زيارة قبر الشاعر ووضع أكاليل الزهور على قبره ثم على تمثاله الضخم والرائع في وسط محج قلعة. لتستمر الفعاليات في مدن داغستان وبلداتها... وقد أسعدني القدر وسمح لي بالمشاركة في هذه الفعاليات بصورة منتظمة بدءًا من عام 2019 حيث قرأتُ – وبناء على طلب المنظمين والأهالي عمومًا

- ترجمات أشعار رسول حمزاتوف وغيره من الشعراء باللغة العربية... وقد لمستُ الحبَّ والتقدير الذي يكنّه أهالي داغستان صغارًا وكبارًا لشاعرهم العظيم الذي جعل العالم قاطبة يحب هذه البلاد الصغيرة والبعيدة بجبالها العالية الخضراء والزرقاء والبيضاء، ويحب شعبها صاحب التاريخ العريق والثقافة الضاربة جذورها في التاريخ...

نعم، لقد حمل رسول حمزاتوف بلاده مع تقاليدها وعاداتها بالإضافة لثقافة شعبه إلى جميع أصقاع الأرض، وترجمها بلغة شعرية ساحرة إلى لوحات مليئة بالمحبة وبالكرم وبالشهامة...



شهادات وآراء

ثمة عدد كبير من الشعراء، وهناك كثيرون يعتقدون أنهم شعراء. بيدَ أنَّ أمثال رسول حمزاتوف - ظاهرة نادرة للغاية. ومن هنا تنبع قيمة حمزاتوف ومكانتهِ، فهو فريد ولا يوجد نظير له. إنه محليٌّ ووطني إلى درجة كبيرة، ولكنه مع ذلك معروف جدًّا للقرّاء في مختلف بلدان العالم.

لا يمكن للقارئ أن يخلط بينه وبين الشعراء الآخرين، بل يمكن تمييزه والتعرّف إليه من الكلمة الأولى ومن أول شطر شعري. كما إنه منسجم مع نفسه وراسخ مثلما هو راسخ ضوء كوكب الزهرة الذي أكثر ما يكون واضحًا ونوره أطول زمنيًا من جميع النجوم عند الفجر. فضلًا عن أنّ الطبيعة منحت حمزاتوف مواهب متعددة بسخاء، ورؤية واسعة وحنونة تجاه العالم.

جينكيز أيتماتوف 1928 – 2008

صاحب رواية جميلة، والمعلم الأول، والسفينة البيضاء، وعندما تتداعى الجبال وغيرها

هنالك عدد كبير من الكواكب والنجوم... لكن عدد النجوم في الأرض قليل جدًّا. ومن بين هذه النجوم رسول حمزاتوف. عندما نقرا

أشعاره – نشعر بالفخر وبالكبرياء لأننا نحن أيضًا شعراء، ونتحدث لغة الشعر أيضًا، كما أننا أبناء الشعر.

معين بسيسو
شاعر فلسطيني

«اكتشاف داغستان» – هذا ما يمكنني ما يعنيه بالنسبة لي إبداع رسول حمزاتوف قبل كل شيء. لقد كشف رسول حمزاتوف عن مأثرة شعرية حقيقية، إذ نجح في تمجيد شعبه، وجعل ثقافته الوطنية عظيمة جدًّا... إن إبداع رسول حمزاتوف، وكتابه «داغستان بلدي» المتلئ بالحكمة – كل هذا ينقلنا إلى ذلك العالم وإلى تلك البلاد العجيبة الساحرة وإلى طبيعتها القاسية...

إراكلي أباشيدزه 1909 – 1992
شاعر وباحث أدبي وسياسي من جمهوريةجورجيا
اعتقل في عام 1937 بسبب قصيدة هجا فيها وزير الأمن بيريا

لقد تحوّلت كلمة «رسول» إلى رمز منذ مدة طويلة. ذلك أنَّ رسول حمزاتوف كان بالنسبة لمن حالفه الحظ وتعرف عليه شخصيًا – تجسيدًا لحبّ الحياة بطريقة مرحة وشاعرية، كما كان بكل بساطة رمزًا للعبقرية البشرية التي تمثِّل إضافة ثمينة ونادرة لتلك الموهبة الأدبية العظيمة. فضلًا عن أنّ اسمه يرمز لداغستان بالنسبة لمن لا يعرف رسول إلّا من خلال أشعاره. لأن إبداعه ينقل للعالم صورة شعب شجاع ومحبٍّ للسخرية،

شعبًا كريمًا في سبيل الصداقة. ليكن مثل هكذا شعراء لدى الشعوب الصغيرة (من حيث عدد السكان) بحيث يجعلون من شعوبهم قليلة العدد شعوبًا عظيمة.

أولجاس عمروفيتش سوليمانوف 1936 – 2016
شاعر وناقد أدبي من كازاخستان.
تعرض للتضييق في الحقبة السوفييتية

تحظى أشعار رسول حمزاتوف، الشخصية المعروفة جدًّا في العالم الأدبي، باهتمام كبير في أوساط الشباب. وأكثر ما تحظى بالتقدير قصيدته «الغرانيق» التي لاقت نجاحًا منقطع النظير في اليابان.

إيساي سيراو. اليابان

رسول حمزاتوف هو أحد أشهر الشعراء السوفيات على الإطلاق. جاب أنحاء أوروبا وأفريقيا وأمريكا. إنّ أشعار حمزاتوف قوية وشجاعة. لقد استطاع أن يرى ما يحدث في العالم من خلال النافذة الصغيرة في بيت العائلة الحجري في جبال داغستان.

بيتر تيمبِست. انكلترا

دستور الجبال [3]

نحن نتعطش للحقيقة، بيدَ أنَّ الكلمة الصادقة غير الماكرة فقط هي الحقيقية.

وسكانُ الجبال لا يمكرون لا في الأفراح ولا في الأتراح، لا في الحب ولا في الغضب. وقد حدث في الأيام الغابرة أنَّ ضيفاً عابراً طرح على اثنين من سكان الجبال عندنا سؤالاً واحداً: «ما هو، مع ذلك، أجمل ما في الإنسان؟». كان جواب الأول الذي تعب من الحروب ضد جحافل الغزاة: «أجمل شيء – ظَهْرُ العدوِّ وقد بدأ يرتجف أثناء الاشتباك». أما الثاني، المزارع وراعي الغنم، فقد قال: «أجمل شيء – هو وجه صديق».

لقد حملت داغستان المُوحَّدة، وطننا الغالي نحن جميعاً، كرامتها القومية والإنسانية عبر ضباب وعواصف القرون، وذلك بفضل أبنائها المخلصين والمستقيمين، لكن دون أن يكونوا غير مبالين تجاه الخير والشر، تجاه العداوة والصداقة، تجاه الخيانة والوفاء للمحاربين، للمزارعين، للرعاة، للعلماء، للشيوخ الحكماء أصحاب اللحى البيضاء، للفتيان الشجعان وللفتيات الجميلات والساحرات اللواتي حافَظْنَ على الجنس ورَبّيْنَ أجيالا جديدة وجديدة.

---

(3)- ألقيت هذه الكلمة في المؤتمر الشعبي العام الذي انعقد في العاصمة ماخاتشكالا على خلفية الأحداث الدامية التي عصفت ب داغستان في سنوات التسعينيات من القرن العشرين... المترجم

لقد نشأ وتشكّل مصيرنا ولا زال يتشكل بحيث أنَّ كلَّ جيل كان يواجه دوماً نفس السؤال الذي لم يكن يوماً بلا مبرر: «ما هو، مع ذلك، أجمل شيء في الإنسان؟».

نقول اليوم لمواطنينا في المهجر: إن داغستان تتطلع بألم وبحرقة إلى ظهور أجدادكم الذين كانوا مضطرين لمغادرة الجبال الغالية. كانت مختلفة أسباب ودوافع انفصالهم عن حضن الوطن العزيز، كما إنَّ طرق ونتائج ذلك الانفصال عن وطنهم العزيز على قلوبهم كانت مختلفة؛ ومع ذلك، إنَّ مجرد حدوث ذلك هو في حد ذاته فاجعة وجرح نازف باستمرار، لأنه لا يوجد ما هو أكبر من فاجعة أنْ يُحرمَ الإنسان من وطنه. فالوطن، كما الأم، تُعطى لمرة واحدة، ونحن لا نختارهما إنما ننشأ منهما.

وأنتم – يا أبناء وبنات داغستان – استجبتم لنداء القلب ورجعتم إلى أرض الأجداد: بعضكم بعد قرن، وآخرون بعد نصف قرن، والبعض الثالث بعد عقود من الغربة، وأنا أرى على وجوهكم بهجة الصداقة والأخوّة التي حافظتم عليها في غربتكم.

لطالما كنا نلجأ في خضم المنازعات الأيديولوجية إلى المجابهة بدلاً من المقارنة. ومثل هذا الفهم للأشياء ليس مقبولاً بالنسبة، خصوصاً عندما يدور الحديث عن مصير إنسان، عن مصير الشعوب. لقد تكوَنت لدي خلال تجربتي الحياتية قناعة بأن الإحساس بالوطن أعمق وأغنى وأكثر جاذبية من مختلف الأنشطة السياسية والتجاذبات الإيديولوجية والمهنية والعقائدية. الحس الوطني والشعور القومي لا يتنافسان مع بعضهما، بل يتحدان عضوياً، يوطّدان ويغنيان كلٌّ منهما الآخر.

وعودتكم هي برهان على ذلك. اليوم هو يوم جمعة – وهو يوم الصلاة الجامعة عند المسلمين، وإنه ليسعدني أن أرى الوجوه الجميلة، الطيبة للأصدقاء، وجوهَ الأهل والأقرباء، الإخوة والأخوات، بكلمة واحدة المواطنين أبناء داغستان. الحمد لله الذي جمع شملنا اليومَ في موطن واحد، في غوديكان[4] لعموم داغستان، وإن شاء الله سوف نجد الأجوبة الشافية على مختلف الأسئلة الملحّة كما كان هو الحال في فترات سابقة من تاريخنا. يحقُّ لنا أن نسعَدَ لذلك طالما أنّنا نرى كيف إنَّ ريش نسورنا التي طالما أدهشت الجميع بتحليقها عبر القرون، وكيف إن أغصان شجرتنا التي تمتد جذور بدايتها إلى الألبانيين القدامى، وأن كلمات صلواتنا المقدسة خشوعاً لله، وأن ألحان أغنياتنا التي لاقت صدى عميقاً في روح ليرمنتوف وتولستوي، وكيف أنَّ تاريخ قرانا الضاربة جذورها في عمق القرون كما هو تاريخ اليونان وروما، كل ذلك لم ينقرض ولم يذهب سدىً، لم يختفِ كلّ ذلك من دون أثر، وأنَّ العواصف الهوجاء لم تذهب بها بعيداً، وأنَّ كلَّ ذلك لم يغرق في لجة الأحداث المضطربة، وأنَّ كلَّ ما هو ثمين قد اجتاز، كما لو أنه طائر الفينيق، نارَ الحرائق العالمية، ولم تنل منها الحروب الكثيرة والثورات ومختلف أشكال العدوان والقمع والاضطهاد، ولا الملاحقات والظلم ومحاولات التهجير.

البحر من أمامنا، والجبال – من خلفنا، ومن حولنا السهول. هذا هو وطننا – داغستان التي عانت الكثير الكثير.

---

(4) - الغوديكان هو الباحة العامة التي تقوم في مركز البلدة أو المدينة وتستخدم عادة مكانا لاجتماع المواطنين من أجل التداول في مختلف العامة اتي تخصهم . المترجم

داغستان لغزٌ للبعض وحكايةٌ للآخرين، أما بالنسبة لنا – فهي بمثابة الشهيق والزفير، أو كما قالت امرأة آفارية– إنها بمثابة المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة.

«احبّوا صخورنا العارية: هي ليست كريمة جدًّا، ولكن لن تكون هناك من دونها حرية ولا حياة كريمة لسكان جبالها الفقراء» – هذا ما أوصى به الإمام شامِل.

«إنَّ عددَ الذين قتلوا على هذه الأرض يفوقُ بكثير عددَ الموتى!» – قال شاعر.

«لم أرَ في حياتي كل تلك الكمية من الدم وكل تلك الشجاعة في هكذا فضاء صغير» – كتب بيستوجيف – مارلينسكي[5]

«أواه، كم كانوا سيحبّون هذا البلد لو أنه كان جزءاً من وطنهم» – أضاف هو.

أما شاعرنا محمود فقد أنشد: «نعم، هناك ما يكفي من الجَمال في هذه الجبال أيضًا».

لقد شتَّتَنا المصير العاثر في مناطق ومدن وبلدان مختلفة، وها نحن نجتمع اليوم هنا في المؤتمر الشعبي الأول. نحن نتكلم لغات مختلفة، ولكلٍّ منا موقفه ورؤيته لهذه أو لتلك من القضايا. قد ينشأ بيننا نزاع في الأفكار وتصادم في المشاعر، نقاش بلا مهادنة أو عدم اتفاق مع بعضنا البعض.

---

(5) - ألكسندر مارلينسكي . 1797 – 1837 واحد من أربعة اخوة (الاخوة الثلاثة الآخرون هم: ميخائيل، نيكولاي، بطرس) شاركوا في انتفاضة 14 ديسمبر 1825في روسيا. وقد كان عضواً في جمعية الشمال الثورية. كاتب. نفي إلى القوقاز. قتل في المعركة.

إلّا أننا بغض النزر عن اللغة التي سنتكلم بها، ومهما كانت الأغاني التي سوف ننشدها، ومهما اختلفنا أثناء مناقشاتنا للتفاصيل، فإنه ثمة شيء واحد يجمعنا ويوحّدنا – إنها محبة داغستان. هذا لا خلاف فيه وعليه. وهذا هو الأساس. هذا يجمع بيننا ويمنحنا القوة والثقة والحكمة.

عندما تتلبد السماء بالغيوم يُسارِع المزارع إلى إنقاذ المحصول. وقد اجتمعنا اليومَ كي نتشاور لأنَّ تحوّلات عميقة وغير مسبوقة تجري في بلادنا وفي كل العالم وترافقها صدامات دموية، ولأنَّه هنالك مَن يسعى لجرِّ الغيوم الرعدية إلى سماء جمهوريتنا. نحن نستدعي إلى مجلسنا هذا حكمةَ الطبيعة والقرون، تجربة الأشقاء وعبقرية كل العصور، نستدعي هنا دروسَ الدروب القاسية التي عبرنا عليها الحياة، نحن نستدعي مشورة الإله سبحانه.

يُقال أنَّ اللسان «يدور» دائما حول الضرس المؤلم. لكن أسنانا أصبحت جميعها منخورة ومؤلمة في السنوات الأخيرة. فما هو الأكثر أهمية بالنسبة لنا؟ ما هو المهمُّ بالنسبة لرخاء وتطور داغستان – إنه قبل كلِّ شيء عدم التجزئة، متانة ووحدة شعوب وقوميات داغستان. شعور العائلة الواحدة – هذا هو ما نحن بحاجة إليه لكي نحافظ على خصوصية كل قومية ولكي نطّورها، وبالتالي لكي نطوِّرَ داغستان بأكملها. إنَّ الشروط الضرورية لوجود أي شعب هي اللغة، والدين والثقافة، علماً أنَّ اللغة هي الأساس. وعندنا عدة لغات. وقد حافظنا، بالرغم من تمنيات رُسُل الشؤم، على تلك اللغات وهي بدورها حافظت علينا. نحن نكتب وننشد الأغاني ونعشق بتلك اللغات. تعدد اللغات لا يعيق وحدتنا.

نحن نشهد النزاعات والاقتتال عند الكثير من الأمم والقبائل التي تتكلم لغات مختلفة. أما نحن، والحمد لله، نعيش بسلام ووئام كما عشنا منذ آلاف السنين.

أما ما يتعلّق بالثقافة. فأنتم ترون كيف إنَّ أخبار الجرائم تتصدّر الصفحات الأولى من معظم الصحف. كما تلاحظون كيف راحت تتفشى أزمة أخلاقية وروحية عميقة منقطعة النظير إلى جانب المشاكل الاقتصادية والسياسية والفوضى الاجتماعية. ففي مثل هذه الحالة بالغة الصعوبة إلى أبعد حد، يجب علينا أن نكرّس كل طاقاتنا لا من أجل إنقاذ ثقافتنا الضاربة جذورها عبر القرون والفريدة من بين ثقافات مختلف الشعوب وحسب، بل ومن أجل مضاعفتها ومن أجل المزيد من انتشارها. وهذه محطات من نشاطنا الثقافي في الآونة الأخيرة. أقيم في موسكو مهرجان «أسبوع كبار الفنانين الداغستانيين». وفي بطرسبورغ: يجري ترميم لوحة روبو «آخولغو»، أما في طوكيو فقد نال معرض الفنون الشعبية الداغستانية إعجاب الجمهور الياباني. وفي محج قلعة جرى الاحتفال بيوبيل الشاعر الغنائي العظيم تشانكا. ومَن لا يعرف أعمال الحرفيين في بلدنا، والرقصات النارية لفرساننا، مَن لا يعرف إبداع كتّابنا وأغاني موسيقيينا ولوحات رسامينا وغير ذلك الكثير.

نعم، الثقافة – هي جواز سفر شعوبنا. لكن ما فقدناه لم يكن بالقليل، لأنّنا رحنا نركض وراء المنافسة التجارية (الميركانتيلية). لقد أضعنا ونضيع الكثير في الاجتماعات الحاشدة المجنونة، حيث راح الخطباء غير المسؤولين «يقضمون رقاب» بعضهم البعض.

نحن ممتنون لدِيننا، كما إننا نشكر لغاتنا وثقافتنا التي جعلت العالمَ يدرك أنَّ داغستان كانت وأنها توجد وأنها ستبقى إلى الأبد حتى في أحلك الظروف.

هناك عامل آخر لا يقلُّ أهمية ويضاف إلى تلك العوامل الثلاثة: إنه دستور داغستان - القانون الأساسي لمواطنينا. أنا لا أقصد دستور البلاد الرسمي الذي أعدَّه وأقرّه المجلس الأعلى للجمهورية، وإنما الدستور الأخلاقي، الدستور الأدبي والروحي لشعوب داغستان الذي صاغته القرون. يوجد لدينا منذ قرون دستور روحي واحد غير مكتوب التزمت به شعوب داغستان ولا يجوز تغييره أو التلاعب بمواده كما هو الحال مع القرآن الكريم تمامًا، كما لا يسمح بأي إضافات أو تعديلات في هذا الدستور الذي اجتاز امتحان التاريخ. إنها قوانين الواجب والكرامة، إنها مبادئ وحدة داغستان التي لا تتزعزع.

أنا بصدد كتابة الجزء أو الكتاب الثالث من «داغستان بلدي». وقد قمتُ في هذا الكتاب بتصنيف وترتيب الجوانب الرئيسية للعادات التي تتميز بها طباع وروح الإنسان الجبليِّ. فمن الأفضل أن تنقرض القوات المسلحة بدلاً من أن تموت عاداتنا - تلك القوانين غير المكتوبة التي التزم وعاش على أساسها الجبليون. يتضمن ذلك الدستور سبع مواد فقط. أما الباقي فهو عبارة عن تعليقات وتفسيرات واقتراحات.

المادة الأولى. الرجل

يجب أنْ يكون الخنجرُ حادًّا، والرجلُ شجاعًا. ولا علاقة للشجاعة الحقيقية اطلاقًا بذلك التلويح بالأيادي في المناسبات الجماهيرية

الاستعراضية. كلاهما خطرٌ أثناء العاصفة: جموح الشباب وبطء الشيوخ وتلكؤهم. إنَّ الحركات المختلفة ذات الصبغة القومية ومختلف فصائل «التدخل السريع» غير المنضبطة وهلم جرا، مهما اختلفت تسميتها، لا تساعد على انبعاث داغستان. فأولئك الذين يعتدون على حياة أمثالهم، والذين يعترضون القطارات، ويعرقلون إقلاع الطائرات بركابها الأبرياء؛ أولئك الذين يدفعون بأبنائنا وبأهالينا إلى المشاركة في الاقتتال الأخوي والذين يتعاملون مع السلاح المميت ويلعبون بالنار- لكل أولئك أريد أن أقول باسم داغستان، باسم مجلسنا هذا: إنهم لا يتصرفون بطريقة داغستانية ولا بطريقة قوقازية، لا كما يعلّمنا الإسلام ولا كما علّمنا (الإمام) شامِل، ولا بطريقة إنسانية، لأنَّ الأطماع تغلب على سلوكهم وليست المواقف، يغلب ما هو عاطفيٌّ على ما هو قومي، تغلب الرعونة في سلوكهم على الحكمة، الأنانية على المصالح العامة لكل داغستان.

المادة الثانية. المرأة

لو كانت مشيئتي لكنتُ اعتبرتُ هذه المادة هي الأولى. جاء فيها: «مقياس الكرامة الإنسانية بالنسبة للرجل هو موقفه من المرأة». ويحقُّ للرجل أن يتعارك في حالتين فقط - دفاعاً عن وطنه وعن النساء الجميلات. فيما عدا ذلك وحدها الديوك فقط هي التي تتعارك. وقد صار لدينا الآن، للأسف، الكثير مما هو «ديكي».

إنهم يسيرون على خطانا. بعد هزيمته على أرض داغستان سألَ ملكٌ فارسي: «مَن هو قائدكم؟» تقدَّمت امرأة داغستانية عادية تحمل طفلاً بين يديها. نعم، لقد انتصرنا في ظلِّ مثل هكذا قيادة ونحن ندافع عن حريتنا تحت رايتها. إنَّ قضية الأم والطفل تبعث على القلق وهي واحدة من القضايا المعقدة التي تضعها الحياة أمامنا ونحن مُلزمون بالإجابة عليها اليوم. فالأمُّ تسألُ والدموع في عينيها: «ماذا سيحصل لطفلي؟». العالَم ظالمٌ جدًّا، وهذا القرن قاس للغاية، أغلب القادة حمقى ومِن حولنا ظلام قاتم وفقر مدقع، جرائم وكوارث، فوضى عارمة ودماء. ماذا يمكنها أنْ تفعل الأمُّ – حافظة النوع البشري، هذه الضعيفة والفقيرة؟ يجب علينا أن نحيط بحجم هذه المعضلة وبأهميتها. لأنَّ مستقبل شعوبنا يتوقف على مدى صحة الأجيال القادمة من الناحية الجسدية والروحية. لكن الوضع الحالي في العالم يهدد الحضارة البشرية بالانقراض. هناك حروب وجوع، هنالك تراجع كبير جدًّا في نسبة الولادات، وهناك الكثير من الأمراض الفتاكة – كل ذلك لا يترك مجالاً للتفاؤل في المستقبل. وما يبعث حزنًا كبيرًا في النفس هو أنَّ الأطفال الأبرياء هم الذين يدفعون ثمن الأفعال الجنونية للكبار.

كانت العناية بالفتيان والاهتمام بالصغار من أولى واجبات الكبار. «لا يجوز أنْ يُولَد عند الأب الشجاع ابنٌ خجول» – هذا ما قاله باتيراي[6]. لقد قدّمت رجاحةُ العقل والرأيُ السَّديد عند الكبار خدمةً كبيرة للشعراء

(6) - باتيراي 1831 – 1910 شاعر داغستاني وهو يعتبر بمثابة الأب الروحي للأدب الداغستاني المعاصر. المترجم

وللمقاتلين على حدٍّ سواء. لكن الدهر ألْحَقَ بهذه القاعدة التاريخية ضرراً بالغاً. ذلك أنَّ لامبالاة الأولاد والبنات الضالين تزيد من الشيب والتجاعيد عند أهاليهم المسنين. كم هو مؤلم النظر إلى الوجوه الحزينة للمتقاعدين والمقعدين وهم ينتظرون في الصفوف من أجل شراء الخبز والحليب والدواء، من أجل الحصول على السكن وبطاقة التقاعد، من أجل الكلمة الطيبة، من أجل الحقِّ المُداس. كم هي قاسية المرارة حين ترى فتياناً يبيعون خناجر وميداليات آبائهم في البازار والأسواق.

المادة الرابعة. الذاكرة

سيروا في أرضنا، اقرؤوا عن مدننا، تذكّروا أسماء التعاونيات والمعامل، أسماءَ الشوارع والساحات، أسماءَ المصانع والمعاهد والجامعات، وربما مناطق بأكملها. ينشأ انطباعٌ كما لو إنَّ داغستان أبصرتِ النورَ لأول مرة عام 1917 فقط. وإذا ما انطلقنا من تلك التسميات والمصطلحات، فسوف تختفي من الذاكرة مراحل كاملة من تاريخنا. ألمْ يكن لدينا قبل الثورة شعراء ومقاتلون؟ ألم تكن لدينا حروب، باستثناء الحرب الأهلية والحرب الوطنية العظمى؟ أيُعقل أنَّ بطولاتنا وأمجادنا وثقافتنا تمتد لـ75 سنة فقط؟ لو كانت هناك شخصيات من أمثال شامل وحاج مراد في بلدان أخرى، لكانت أسماؤهم هي التي تزيِّن المدن والبلدات الحديثة. لكانوا شيَّدوا لهم تماثيل في الساحات المركزية لعواصمهم.

نحن نتسكع يوميًا في شوارع عريضة بتسميات مختلفة (كاتروف، ليشينسك، وغيرها). أنا لست ضد هؤلاء. لكنني لا أفهم لماذا لا توجد شوارع تحمل أسماء الشهداء الذين سقطوا في الحرب ضد قوات نظير

شاه[7] التي كانت تحتل داغستان ذات يوم، وفي مواجهة عدوان تيمور لنك، أو تحمل أسماء الأئمة والعلماء الذين حملوا راية الكفاح ضد مختلف المعتدين. يبدو أننا لسنا متحمّسين لتخليد ذكرى أسلافنا الأبطال الذين رفعوا عالياً مجدَ داغستان.

لنأخذ مثلاً الفنان التشكيلي فرانتس روبو[8] الذي قام بتصميم عدد من أعظم اللوحات الحربية في العصر الحديث (Bata lie بالفرنسية – معركة). ومن أهمِّ لوحاته البانورامية: «معركة بورودينو»، «معركة سيفاستوبل» ولوحة «آخولغو». أما بانوراما بورودينو في موسكو فيزورها مئات آلاف الزوار سنوياً. وكذلك الأمر بالنسبة لبانوراما معركة سيفاستوبل حيث يزورها القاطنون في منطقة القرم والضيوف. في حين أنَّ بانوراما «آخولغو» العظيمة وهي مكرسة للحرب في القوقاز، فإنهم لا يستطيعون تأمين التمويل اللازم لترميمها. أنا أعتقد أنَّ مجلسنا سيدعم الطلب بتسريع عملية ترميم تلك التحفة التي تصوِّر حقبةً كاملة من تاريخنا.

ثمة بطل آخر، شامل آخر في داغستان. إنه «شامل» في مجال الفنون وأقصد الرسام الموهوب والمبدع من قرية تشوخ، موسى خليل[9] الذي

---

(7) - 1688 – 1747 شاه إيران الذي طرد الأفغان والترك من إيران واحتل مناطق كبيرة في الهند والقوقاز - المترجم

(8) - فرانتس روبو 1856 – 1928. فنان روسي اشتهر بجدارياته التي خلّدت المعارك الوطنية العظيمة: معركة "سيفاستوبل" 1902 – 1904، معركة "بورودينو " 1812، و" آخولغو" – عن كفاح شعوب القوقاز في القرن التاسع عشر ضد روسيا القيصرية.

(9) - موسى خليل: فنان داغستاني عاش وعمل ومات في أمريكا. لم تذكره الأدبيات والمراجع في فترة الاتحاد السوفييتي لاعتبارات إيديولوجية...

توفي وتم دفنه فيها وراء المحيط بالقرب من نيويورك. فمن المعروف أنَّ لوحات موسى خليل والتي تصور جوانب وأماكن مختلفة من داغستان، تحظى بالإعجاب وبالتقدير في كلٍّ من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وفي إيران وتركيا، وفي أمريكا بطبيعة الحال. لكن الفرصة لرؤية لوحاته وللاطلاع على مواهبه وإبداعه، على إخلاصه ومحبّته لوطنه ظلّت معدومة، بل حتى إنَّ اسمه ظلَّ مغيّباً عنّا لعقود طويلة. أما هو، ابن هذه الجبال الوفي، فقد أوصى قبل وفاته بكل ثروته الإبداعية لصالح بلده داغستان العزيزة. وقد عادت إلينا تلك اللوحات. فَمتى، إنْ لم يكن اليوم، ومَن يجب عليه، إنْ لم يكن علينا نحن، وأين، إنْ لم يكن في عاصمتنا – سنجعل تلك التحف الفنية في متناول شعوبنا، وهذا يتطلب بناء متحف خاص بالفنان ابن داغستان العظيمة. لكن تلك اللوحات ما زالت متروكةً في المستودعات منذ أكثر من سنتين.

يكادُ الجيلُ الحالي لا يعرف أسماء المفكرين والعلماء والكتّاب الذين مرّوا في تاريخ شعوبنا والذين كان إبداعاهم معروفًا بشكل واسع في أنحاء الشرق كله، لا سيما في الجزيرة العربية وفي تركيا وإيران، وفي روسيا أيضًا.

كتبتُ في يوم من الأيام: مَن يُطلق الرصاصَ على ماضيه من المسدس، فإنَّ المستقبل سيطلق الرصاص عليه من المدفع.

لذلك يجب أن لا ننسى الماضي. أما الشيوخ فَيجب علينا احترامهم، علينا أن نقف وأن نحني عند دخولهم، ويجب زيارة قبور الآباء والأمهات، كما يجب أنْ نحترم ذكرى الأبطال في تاريخ داغستان. ونحن

ننظم سنويًّا مهرجان الغرانيق بهدف تخليد ذكرى أولئك الذين استشهدوا من أجل إنقاذ وطننا، مع دعوة ضيوف كثيرين من مختلف الجمهوريات والبلدان. وأنا أدعوكم جميعًا إلى الاشتراك في ذلك الاحتفال.

المادة الخامسة: الصداقة.

المادة السادسة: الضيف. إكرام الضيف.

المادة السابعة: الجار. حسن الجوار.

هذه المواد الثلاث الأخيرة مترابطة مع بعضها البعض. «احفظوا الأصدقاء، واحذروا أن تفقدوهم» – تلك كانت وصيّة الأجداد. وبودّي أن أضيفَ: والضيوف والجيران. ففي هذا تكمن المساواة وعجلة حياتنا.

تكاد قلوبنا تتقطع من الألم بسبب الحرب غير المبررة بين الشعبين الجارين والشقيقين، الأذربيجاني والأرمني، وما يرافقها من سفك للدماء. بدلاً من العيش وفق القوانين التي تفرضها حكمة الصداقة وحسن الضيافة وحسن الجوار، راح الجاران يتحاربان بسبب النزاعات الحدودية، وهذا يؤدي إلى سقوط الكثير من الضحايا في المعارك، دون أن تلوح نهايةٌ قريبة لتلك المأساة الوطنية (حين ألقى الراحل رسول حمزاتوف هذه الكلمة كانت ما تزال نار الحرب في ناغورني قره باخ مستعرة بين أذربيجان وأرمينيا... المترجم). أذربيجان جار لنا. ونحن نشترك في دينٍ واحد. والبحر والجبال لن تفصل بيننا، بل ستساعد في تقريبنا وستجمع فيها بيننا. بيدَ أنه هنالك مَن يخطط لرسم حدود تفصل بين شعبينا. لا يجوز

السماح بذلك. لا يجوز ولا يمكن فصلنا عن بعضنا. لتبقَ حدود داغستان مفتوحة.

كما أنَّ الأخبار التي تصلني من جورجيا زعزعت كياني وأثارت القلق في نفسي. كيف أمكن لبلد الحضارة العريقة الضاربة جذورها في التاريخ، أن يسمح باشتعال الحرب في أوسيتيا الجنوبية، وها هي الآن تندلع في أبخازيا الصغيرة أيضا؟ كما إنّي لا أستطيع أن أفهم تلك الدعوات التي يطلقها بعض المغامرين الشبّان والتي تدعو أولادنا وأهلنا للاشتراك في تلك الصراعات المسلحة، وذلك بدلاً من العمل على نشر السلام في القوقاز.

كتب ستاندال:

«أروع ما يكون الإنسان في حالتين اثنتين: الأولى عندما يغفر هو للجميع، والثانية – حين يغفر الجميع له».

إني أدعوكم مرة أخرى ومن جديد: احذروا أن تفقدوا الأصدقاء. عندما نفقد الأصدقاء – فكأنما نخسر جزءاً من حياتنا.

بهذه المناسبة أريد أنْ أقول بضع كلمات حول علاقتنا مع روسيا. هذه قضية محورية حين يجري الحديث عن ماضينا وعن حاضرنا ومستقبلنا. من المعروف أنَّ روسيا لم تأتِ إلينا في الماضي بالورود وبالأغاني. فالنسر ذو الرأسين الذي عاد وظهر على شعار الدولة الروسية، مارس القمع مثل وحش كاسر تماماً في غابات الشيشان وداغستان وفي جبال وقرى البلدَين. حتى إنَّ بوشكين العظيم صرخَ: «استكنْ أيها القفقاس،

يرمولوف قادم»[10]. لكننا لم نستكن وأعلنَّا الجهاد. مما لا شك فيه أنَّ القياصرة الروس وأعوانهم ارتكبوا الكثير من الجرائم وهم مذنبون في الكثير من المآسي بما في ذلك جريمة تشتيت شعوبنا، بحيث أن مواطنينا اضطروا للهجرة والعيش في الغربة، في تركيا وفي سوريا، في إيران وغيرها من البلدان، دون أن يتمكنوا من العودة خلال أكثر من قرن.

ومن روسيا جاءت إلينا الثورة التي أودت بحياة عشرات الألوف من الناس. تم حرمان شعوب بأكملها من أوطانها: في الشيشان وإنغوشتيا، شعب الكالميك وبالكاريا، وفي قره تشاي[11] وغيرها، ومن إمكانية العيش في أرض أجدادهم، وأن يتنفسوا هواء القوقاز الرائع. والآن، كثيراً ما نسمع في التلفزيون وبالراديو تعابير مثل «سحنات من قوميات قوقازية»، «وجوه من قومية شيشانية»، كما لو أنَّ هؤلاء الناس من بلاد أخرى، وكلّ ذلك لأنَّ المراسلين والصحفيين متعطشون لإثارة المشاكل ذات الطابع الجُرمي وراغبون في خلق البلبلة والإثارة. فالناس في مختلف أنحاء روسيا وخارجها يعرفون بأية مشكلة تحدث في داغستان قبل أن يسمع بها أهل البيت هنا. هذا يعقّد حياة وعمل مواطنينا خارج حدود جمهورية داغستان بل وفي داخل الجمهورية. وهذا لا يروق لي، كما لا تروق لي أيضًا تعابير من نوع: «الناطقون بالروسية» أو «الحمر- الشقر» (كناية عن الروس) وغيرها من النعوت. هذا يؤجج الحقد ويضاعف من

---

(10) - الكساندر بتروفيتش يرمولوف 1777– 1861 جنرال روسي شارك في حرب 1812 ضد نابليون... قائد الجيش الروسي في القوقاز 1816 – 1827.

(11) - أقليات عرقية في جمهوريات تتمتع بحم ذاتي داخل الاتحاد الروسي ذات غالبية إسلامية من السكان في مناطق القوقاز الشمالي. اغلبهم يتكلمون لغة تشترك في جذورها مع اللغة التركية.

منسوب الكراهية، يساعد على انتشار المزيد من التناقضات والصراعات، ويدفع للاقتتال على أساس عرقي وقومي وعلى ظهور العصابات المسلحة، على تعزيز وتعميق المشاعر العنصرية تجاه الروس. وكل هذا يناقض العقل كما يناقض القرآن. لقد جاء في القرآن: «ادخلوا معاً بسلام». «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أنَّ أكرمكم عند الله اتقاكم» (سورة الحجرات). أعتقد أنَّ التعارف على بعضنا البعض يعني أن نعيش سوية. ثمة قول مأثور عندنا: «يوم بلا صديق – يوم ضائع».

الإحساس بالألم وبالفرح فقط هو الذي سيوحد داغستان والقوقاز وكلَّ العالم الذي نعيش فيه.

لقد عانت الأمة الروسية نفسها من جور قياصرتها وحكامها، من مختلف الأنظمة والعنف والاضطهاد. لكن المعلمة الروسية التي علّمت أطفالنا في الآول البعيد، والأطباء الروس الذين عالجوا أهالينا في ظروف صعبة جدًّا، والعلماء الروس الذين أسسوا المعاهد عندنا – جميع هؤلاء لا يمتّون بأيّة صلةٍ إلى أولئك الذين قادوا عمليات التعذيب ضد مثقفينا. وقد كانت غريبة ومستهجنة بالنسبة إلى كلٍّ من أوسلار[12]، ولانسيرا [13] وتيخونوف[14] تلك الوقاحة التي كانت تصدر عن كلٍّ من

---

(12) - بيتر كارلوفيتش اوسلار 1816 – 1875 عالم لغات. وضع الأسس العلمية للقواعد النحوية في لغات بعض شعوب القوقاز.

(13) - يفغيني يفغينوفيتش لانسيري 1875 – 1946 فنان تشكيلي شعبي روسي وصاحب الرسومات الداخلية في كتاب "القوقاز" للكاتب الروسي المعروف ليف تولستوي.

(14) - المقصود هنا هو الكاتب الروسي السوفييتي الشهير نيكولاي سيميونوفيتش تيخونوف 1896 – 1979.

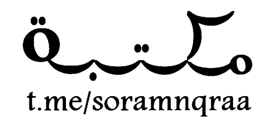
السكرتيرين الأول والثاني للمنظمات الحزبية... لقد تعلّم الآلاف والآلاف من مواطنينا وما زالوا يتعلمون، عملوا وما زالوا يعملون، عاشوا وما زالوا يعيشون في موسكو وفي مدن روسية أخرى. لذلك أعتقد أنّ القرار الذي اتخذه المجلس الأعلى لجمهورية داغستان بالبقاء ضمن اتحاد جمهوريات روسيا كان حكيماً وعقلانياً. لكن هذا يجب أن لا يعزلنا عن البلدان والجمهوريات الأخرى، وأن لا ينقص من وحدة شعوب داغستان واستقلالها. بل على العكس – يجب أن يساعد على ازدهار الجبال والوديان والسهول.

سنكون بخير فقط حين نكون معًا. لا مفرَّ لنا من البقاء مع بعضنا ويجب علينا أن نبقى كذلك.

هناك قناعات وطنية، سياسية، تجارية. لكن أهم قناعة وأثمن قناعة هي القناعة النابعة من الداخل. وعلى أساس قناعتنا الداخلية سوف نتصرف.

لقد انطلقتُ وأنطلقُ من إدراكي إلى ما يلي: الأرض هي التي أوقفتنا على أرجلنا. وهي التي ستكون آخر مأوى لنا.

محج قلعة. نيسان 1997



قصائد مختارة

1

اِحفظوا الأطفال

ليس ثمة ما هو أكثر حزناً
من شهر حزيران ذاك، الذي
احترق مثل خشبة في موقد...
لن أنسى، كيف قبضتُ بيدي
على يدِ أبي لحظةَ الوداع.
نهض للحظة قبل أن تنغلقَ إلى الأبد
عيناه المفعمتيَن بالحزن،
وقال في الختام بصوت خافتٍ:
«احفظِ الأطفال!».
راحت الشمس وهي تشرق
ونجوم السماء، والنهر الهادر
مع الجدول الصغير، تردِّدُ مثل الصدى،
في كلِّ يومٍ خلفَه عبر السنين:
«احفظوا الأطفال!».
حين توفيت أمّي، كنتُ بعيداً في دوامةِ
الأحداث والمشاغل.

لكن غصّة في حلقي لا تزال تخنقني

حتى الآن، لأنني لم أتمكن من توديعها.

وفي كلِّ مرّةٍ أنحني فوق بلاطة

القبر الشجية، وبينما أمسح الدموع عن وجنتي،

يُخيَّل لي أنني أسمع صوتها الحنون:

«ولدي الحبيب، احفظ الأطفال!».

وأنا أسمعه وسط هدير الرعد،

وفي جَلَبَةِ الأيام وهي تمضي مسرعة...

وما مِن وصية عندي أهم من تلك الكلمات الهادئة:

«احفظوا الأطفال!».

أتمنى لو أكتبُها على مهودهم الأرضية،

وأن أرسمها على الأغماد...

كي تقرؤوها جميعكم منذ الفجر وحتى المغيب،

وبعد أن تضعوا جانباً الخنجر القاتل.

كثيرةٌ هي الأغاني في هذه الدنيا،

بيدَ أنَّ واحدةً تتكرر في حياتي باستمرار.

فلا تكفُّ أوتارُ الباندور الجبلي

عن الترداد كل ساعة: «احفظوا الأطفال!».

لقد رأيتُ كيف إنَّ النسر يعلِّم

أفراخه الصغار الضعفاء فَرْدَ الأجنحة،

ويا ليتهُ علَّمَ الآباء المُهمِلين

أن يفعلوا ذلك مع الذريَّةِ أيضًا.

هذا العالَمُ مثل جرحٍ مفتوحٍ في الصدر،

لن يندمل أبدًا بعد الآن.

لكنّني أردِّد في كلِّ لحظةٍ، كما لو أنها

صلاة المسير: «احفظوا الأطفال!».

أرجو الجميعَ، كلَّ مَن يؤدي الصلاة،

ورعايا جميع الكنائس في العالم،

أرجوهم في شيء: «انسوا الشِقاقَ،

احفظوا بيتكم وأطفالكم العزّل!» –

من الأمراض، من الانتقام والحرب الرهيبة،

احفظوهم من الأفكار الطائشة والغبية.

وعلينا اليومَ أن نرفعَ معاً بأعلى الصوت

نداءً واحدًا: «احفظوا الأطفال!».

2

الغرانيق[15]

يبدو لي أحيانًا، أنَّ الجنودَ

الذين سقطوا في المعارك الدامية،

لم يُدفَنوا في ترابنا يومًا قط،

بل تحوّلوا إلى غرانيق بيض.

وأنهم ما زالوا يطيرون ويبعثون إلينا النداء

منذ تلك الأيام البعيدة وحتى الآن.

أليس لهذا السبب نحن غالبًا

ما نصمتُ بحزن ونحن نتطلّعُ إلى السماء؟

وها أنا ذا أرى اليومَ عند المغيب،

عبْرَ الضباب كيف إنَّ الغرانيق

تطيرُ في انتظامها المعهود،

كما كان يمشي الجنودُ في الأرض.

تطيرُ وتختتِمُ طريقَها الطويل

---

(15) - هذه القصيدة قام بتلحينها أكثر الملحنين السوفييت شهرة كما قام بأدائها عدد كبير من المطربين السوفييت المشهورين وعلى رأسهم المطرب السوفييتي الشهير الراحل مسلم ماغَمايِيف.. وتعتبر قصيدة "الغرانيق" واحدةً من أروع القصائد التي تُمجِّد الشهداء الذين سقطوا دفاعاً عن وطنهم..

وهي تستدعي بعضَ الأسماء .

أليس لهذا ومنذُ الأزل تُشبِهُ اللغةُ الآفارية

صوتَ نداء الغرانيق؟

يطير ويطير في السماء سربٌ تعِبٌ –

يا أصدقائي السابقين ويا أحبائي.

وثمّةَ فراغٌ صغير في رتلِهِ –

ربما، هذا المكانُ يعود لي!

سيحينُ يومٌ، وسوف أطير

مع سربِ الغرانيق في مثل هذه الظلمة الزرقاء،

وأنادي من تحت قبّة السماء بصوت الطيور

أولئك الذين تركتُهم على الأرض جميعاً.

3

قلبي في الجبال

قلبي في أعلى الجبال، وأمَّا أنا – ففي الحضيض...

روبرت برنس

الصيفُ الساكنُ هجَرَ المدينة...

ومن جديد أطلقوا عني شائعةً غبيّة،

راحت تزحَفُ على الطريق وتتسلّق الجبال،

وهي تعربد في البيوت الأفارية.

هناك نميمة: كما لو أنّني،

صرتُ فتى متغطرساً،

وأنّني رحتُ أغرّدِ بعيداً عن البيت،

أنّي نسيتُ الآول الملتصق بالصخور،

ونسيتُ لونَ ورائحةَ الأرض الصخرية العزيزة.

وكأنني نسيتُ، كذا، الجبليات اللاتي

يحمِلْنَ الحشائش من المروج

عبر الدروب الوعرة، على ظهورهِن المتعرّقةِ.

يُقَال إنني ارتديتُ قبعة تشبهُ الطسْت المعدني،
ووضعتُ ربطةَ عنقٍ عصرية أشبه بذيل حمار.

وإنّي نادراً ما أزور غونيب،
ونادراً ما أرى أعشاب هونزاخ،
إنَّني صرت غريبًا،
ولا علمَ إنْ كنتُ سأعود مرة ثانية...
يقولون، إنّي أعيش لمجدي الشخصي،
وأنّه لم يعدْ ثمة دمٌ جبلي فيَّ منذ أمدٍ بعيد.

هذا ما أسرَّهُ لي على عجلٍ
واحدٌ أشيب الشعر من بلدي.
وأَبَى أنْ يتناولَ الغداءَ معي.
أبى، العنيدُ، أن يتذوّقَ النبيذَ الجديد،
وأبْعَدَ عنه الكأس «التشيكي»[16] المتلألئ.
لم يكترثْ لأثاثِ البيت، بل جلسَ
بحذر على حافَّةِ الأريكة الواسعة.
نَظَرَ بلا اكتراث إلى أوسمتي،

(16) - التشيكي هنا كناية عن أن الكأس مصنوع من الكريستال

التي حملتُها بعد أنْ زرتُ بلداناً كثيرة.
أخْرَجَ كيسَ تبغٍ، وهو يُدمدِمُ،
رافضًا سيجارة مني بحزم.
وراح يلعب مع ابنتي الصغيرة زاريما
وهو ينظر ساهياً إلى صورة الأب.
نامَ الضيفُ جالساً، رغم أنّنا جهّزنا له السرير،
افترش فراءً من جلد الماعز، وتغطّى بطرفه.
(كما كان الصيادُ يغفو، أحياناً، أثناء التوقف،
بعد أنْ أصابَ التيسَ الجبليَّ بسهم خشبي دقيق)
... آه، أيها السهمُ الذي أصاب فرحَ الشاعر،
والحجرُ الذي أُلقيَ في القلب من القِمم الآفارية!
لا، لا تُصدِّق يا شعبي، النميمةَ السامة،
وهل أنا أساوي بمفردي ولو إصبعاً في يديك؟
ما حاجتي للمجدِ الشخصي؟ ما هو، حقاً؟
فأنا فخور بك، لا بنفسي، يا شعبي.
أنا مُجرَّدُ شرارة لمجدِكَ المُتَوهِّج،
ومن دونك ستنطفئ هذه الشرارة وستموت.
أنا مجرّد قِشّةٍ في ربوعِكَ الجبلية العالية،
ومصيري أنْ أذبُلَ من دونك وسطَ الغبار.

أنا – مجرد قطرة في أنهارِكَ العصيّة،
ومن دونك َكنْتُ سأنضب وأتبخّر من زمن بعيد.

ها هما يداي خُذْهما – يديَّ الخشنتَين،
فحرارتُكَ تسري في عروقهما،
هذه عيناي. مسكوبٌ فيهما حزنٌ دائم،
في أيام فراقك مهما كان قصيراً جدًّا.
وهذا هو قلبي. إنه قلب الابن،
قلب يقطن في الجبال
ويحي في الأرض العزيزة.
قلب مفعم بالحب المطلق،
فأنا أحبك إلى الأبد،
أيها الشعب الساكن في الجبال!

4

داغستان بلدي

بعد أن زرتُ العديدَ من البلدان،
ورجعتُ إلى البيتِ تعبًا من الطريق،
سألني داغستان وقد انحنى فوقي:
«أَحيُّكَ البعيدُ هو الذي أثارَ الشوقَ فيك؟»

صعدتُ إلى الجبل ومن ذلك العلو
أجبتُ داغستان بعد أن التقطتُ أنفاسي
وتنهدّت بعمق:
«لقد زرتُ مناطقَ كثيرة، لكنك
تظلُّ الأحبَّ إليَّ في الدنيا بأكملها.

ربما، أنا نادراً ما أُقْسِمُ بالحبِّ لك،
فلا الحبُّ جديدٌ، وليس جديداً أن نُقسِم،
أنا أحبُّ بصمت، لأنني أخاف:
أنْ تشحبَ الكلمةُ المُكررةُ مئاتِ المرات.

وإذا ما راح كلُّ واحد من أبنائك يُقْسِم

بالحبِّ لك، وهو يصرخ كما المنادي،

فسوفَ تَملُّ قِممُكَ الصخرية

أنْ تسمعَ وأنْ تردّدِ الصدى في البعيد.

حين كنتَ غارقًا في الدموع وفي الدماء،

سار أبناؤك إلى الموت مع أقلِّ كلام،

وصارتْ أغنيةُ الخنجر الصارمة

نداء القَسَم لحبِّ الأبناء.

وفيما بعد، بعد أن تلاشتِ المعاركُ،

راح أبناؤك، يا داغستاني،

يُقسمون صامتين بالحبِّ لك،

بضرباتِ المطرقة وبالمنجل الرنان.

لقد علّمتنا جميعًا خلال قرون أنْ نعمَلَ

وأن نعيش بلا ضجيج، ولكن ببسالة،

علّمتنا أنَّ الكلمة أهمُّ من الحصان،

وأنَّ الجبليين لا يسرجون خيولَهم

من دون حاجة.

ومع ذلك، وقد عدتُ إليك من عواصم

بعيدة وغريبة، ثرثارة وكاذبة،

يصعبُ عليَّ الصمتُ، وأنا أسمع صوتَ

جداولك الرقراقة وجبالِك الشامخة.

5

صونوا أصدقاءكم

اعرفْ، يا صديقي، قيمةَ الصداقة والعداوة

ولا تأثم باتخاذ حكمٍ متسرِّعٍ.

قد يكون الحنَقُ على الصديق للحظةٍ،

فلا تُسْرع في الإفصاح عنه.

لعلَّ صديقُك تسرّع،

فأساءَ إليك من غير قصد.

وإذا ما اقترف الصديقُ ذنباً ثم أعتذرَ،

فما عليك أن تذكرَ له ذنبه.

نشيخُ نحن الناس ونهرمُ

ومع مرور السنين والأيام

نفقد أصدقاءنا بسهولة،

بيدَ أننا نكتسبهم بمنتهى الصعوبة.

إذا ما كبا الجواد الأصيل وجرَحَ رِجلَه،

ثم نهض من جديد –

فلا تلقِ اللومَ عليهِ بل أنِّبِ الطريقَ،

ولا تتسرع في استبداله.

أرجوكم أيها الناس، حباً بالله،

لا تستحوا من طيبتكم،

لم يعد ثمة أصدقاء كثر في هذه الدنيا،

فاحرصوا ألا تفقدوا أصدقاءكم.

لطالما ألتزمتُ بقواعد أخرى،

فكنتُ أرى في الضعفِ شرًّا.

فكم تخلّيتُ عن أصدقاء كثر في حياتي،

وما أكثر الأصدقاء الذين انفضوا عنّي!

وكم حصلت لاحقاً من أحداثٍ.

كثيراً ما حدث أن ندمتُ

في دروب الحياة الوعرة،

وكم شعرتُ بحاجتي

للأصدقاء الذين فقدتُ!

والآن أنا أتعطّش لرؤيتكم جميعاً

يا مَن أحببتموني يوماً ما،

سواءَ مَن لم أسامحهم، ذات يوم،

أو أولئك الذين لم يغفروا لي.

6

ما الذي بقي، أخيرًا؟

كم سقطتْ ممالك،

كم إمبراطورية غابت،

وكم تبدّلتِ سلالات،

وكلُّ شيء تغيَّرَ مئات المرات...

فما الذي بقي أخيرًا،

سوى «أحبُّ» و«أؤمن»؟

ما الذي بقي أخيرًا،

سواكِ يا فاطمات[17]؟

دولٌ انهارت،

بدأت تجفُّ المحيطات،

أطلانتيدا تحت الأمواج صارتْ،

ولن يعودَ شيءٌ للوراء.

فما الذي بقي أخيرًا؟

سوى الماء فقط بل والنار...

---

(17)- الاسم في العربية فاطمة – لكني احتفظت باللفظ الأصلي للكلمة في النص فاطمات للضرورة الشعرية هنا. المترجم

ما الذي بقي أخيرًا –

سواك يا فاطمات؟

جنكيز خان،

تيمور لنك،

بونابرت – كلهم ذهبوا،

طواهم الزمن مثل الرمل المذري

بلا استثناء...

فما الذي بقي أخيرًا،

سوى اللطْف والأغنية؟

ما الذي بقي أخيرًا –

سواك يا فاطمات؟

والفضاء العظيم[18]

اهتز وانقسم ...

ليت العَزْم كان كافيًا

ليك يكون كل شيء على ما يرام!..

فما الذي بقي أخيرًا –

(18) - المقصود هنا هو الإتحاد السوفييتي السابق - المترجم

سوى المهد والقبر؟

ما الذي بقي أخيرًا –

سوى أنت يا فاطمات؟

على الأرض المحروقة مائة مرة –

تتمزق السماء هباباً:

كم من الألم وكم من الدم

سفك هنا عبر قرون متواصلة...

ما الذي بقي أخيرًا –

عدا النهار وعدا الليل؟

ما الذي بقي أخيرًا –

سواك يا فاطمات؟

لا تقلقوا بشأني،

هكذا هي الدنيا،

لا بد من الوداع –

لا مفرَّ من الفقدان ...

سأرحلُ، لكن قبل ذلك

صبّوا كأساً لي –

سأشربُ حياتي حتى الثمالة...

ولتبقَ في الدنيا

وحدها فاطمات.

7

رسالة من بيروت إلى جنكيز أيتماتوف

أتذْكرُ، يا جنكيز[19]، يومَ كنا وإياك

ضيوفاً في بيروت؟

كيف راح ينسكبُ ضوءٌ أزرق

من البحر ومن السماء،

وكيف راحتِ الشوارع في البعيد تُغرينا.

لقد منحتنا المدينةُ مأوىً هادئاً،

فكان رائعاً في الليل وفي النهار.

كانت بيروتُ تُعتَبرُ باريسَ الشرق،

وقد تأكدتُ من ذلك بأمِّ عيني.

كانت مختلفَ الأعلام في المرفأ من الجهات الساحلية،

وكان ثمة الكثير من السياح والتجار،

وهيهات أن ننسى النساء من مختلف الجنسيات،

اللاتي يتفوَّقْنَ على الحوريات حُسْنًا.

---

(19) - جنكيز أيتماتوف- الكاتب السوفييتي المعروف صاحب راوية "جميلة"..

كيف جاء إلى الفندق في سيارته،
بالقرب من الكازينو، رجل من جزيرة العرب
وراح يقذف بالورود عبرَ نافذة السيارة،
وهو يردد: أنا أتمنى السعادة لحبيبتي[20]!"

كم سحرنا التوثّبُ الذهبيُ للوحات الدعائية،
وهي تتلألأ من الأرض وحتى السقف.
فبدا الأمر وكأنَّ المدينة بأكملها
قد سلَّمَت رأسها لسلطة الحِرَف والخدمات والتجارة.

"اشتري، يا مدام، هذا السوار النادر!"–
"سعره مناسب تماماً"، –
"إنْ ترفضي فكما لو أنك تطلقين النار عليَّ
من مسدس، وأنا موافق أن أخفِّض السعر".

لم يحدث أنّ أحداً اقتحم المنازل وهو يطلق النار،
وقد راح القمر يهزُّ المهود.
يستحيلُ أنْ ننسى كيف جلسنا أنا وإياك

(20) - حرفياً في النص الأصلي: لسينورينتي..

في النادي الأرمني ذاك المساء .

وكيف نطق أحدهم حول المائدة: «هيا نغنّي!»
وإذ بالأرمن وقد كشفوا عن سخاءٍ كبير،
راحوا يغنون عن أمور خاصة تؤرّقهم،
وذلك في ظلِّ هسهسة الأرز اللبناني.

وهل تذكرُ ذلك اللبنانيَ مع الصليبِ في عنقه،
ذاك الذي كان يجلس في البار ويشرب الخمرةَ
مع صديقه المسلم محمَّد،
فكانا يشتعلان معاً بالفرح؟
وقد راحا يتحدثان بلسان واحد
عن بلادهما الحبيبة الموحّدة.
كيف راح ناقوس الدير يُقرع،
وبالقرب منه كان يُسمَع صوتُ المؤذِّن.

«ألا تذكر، يا جنكيز؟..» – مستعد أن أناديك
مرات ومرات من لبنان الذي كان–

كيف ذهبنا إلى بيت جنبلاط[21]،
وقد أمَرَ بَنحْرِ كبشٍ على شرفنا.

كيف راحت قِممُ الجبال تتلألأ بلون الفضة،
وكيف كانت السماء آمنة فوق الذرى.
كان يُمسِك بالسلطة كما يُمسَك الثور من قرنيه،
كرامي[22] الذي كان يقود البلاد آنذاك.

وإذ نجمةٌ سقطتْ، فطارت إلى الظلمة،
وغابت لحظةٌ في غيهب الخلود.
قُتِلَ جنبلاط – صديقنا أنا وإياك،
ولم تعد بيروت كما كانت.

يحدث أنَّ اليهودَ والعرب يتشاجرون
فيها فجأة – كلمة مقابل كلمة –
لكن دون أن يتبادلوا إطلاق النار
ثم يعودون جيراناً مسالمين من جديد.

---

(21) - المقصود رجل الدولة والزعيم الوطني كمال بيك جنبلاط..
(22) - المقصود رجل الدولة اللبناني الراحل رشيد كرامي..

أما الآن فوجهُ اليومِ الأبيض أسود
ويُسمَعُ صوت الرشاشات.
«أخبرنا – سألني فلسطينيون –
ألم يأتِ معك أيتماتوف؟».

«لم يستطع هذه المرّة – أجيب أنا –
فهو يبدْعُ.. هناك في إسِّك –كولي[23]».
وفجأة أشاهدُ: امرأة لبنانية شابة،
وقد ابيضَّ شعرها، تخرج تحت الرصاص.

وهناك، حيث الجدران المهدَّمةُ تحترق،
ودون أن تكترث للحرب، تبدأ بندبِ
ولدها المقتول، فتهزُّ رأسها
وقد أفقدتها المصيبةُ عقلها.

لقد تحوَّل كل سطر عندي إلى ورقة نَعْوَةٍ،
وهنا، حيث سبق وكنا أنا وإياك،
أحمِلُ قلبي قسطكَ الآن،

(23) - عاصمة قرغيزستان حيث كان يعيش ويعمل جنكيز أيتماتوف..

من الألم، يا جنكيز.

مَن له مصلحة؟ – فكّر معي.
بإرادةِ أيّ شيطان شرير
يُطلق لبنانيٌ يَحملُ الصليب في عنقه
على لبنانيٍ يرتدي العمامة؟

يندفعون إلى المعارك بإشارة من صاروخ[24]،
وكل الأطراف اليومَ عنيدون،
وقد نسوا أنَّ محمّداً كرَّمَ المسيحَ
وأنه لم ينكر أبراهام[25].

وإذا ما اخترقت هنا رصاصة صدري،
وتسبّبت بجرح قاتلٍ،
فإني أعرف، يا جنكيز، أنك
سوف تأتي حالاً إلى عاصمة لبنان.

---

(24) - قد يقصد الشاعر صواريخ الشهب كنوع من الاشارات بين المتقاتلين...
(25) - أبراهام هنا كناية عن النبي موسى أوعن الدين اليهودي.

ولتعرف، أنـي ليلة البارحة، وتشهد عليَّ بيروت،

حلمتُ: يا للسعادة، أنَّ الأطفال متحدون

في اسرائيل وفلسطين، وهم يسيرون

معاً متشابكين كقوس قزح.

8

إذا كان ألفُ رجل في العالم

إذا كان ألفُ رجلٍ في العالم
مستعدين أنْ يتقدَّموا لخطبتك،
فَاعلمي، أنَّهُ بين هؤلاء الألفِ رجل
أكون أنا – رسول حمزاتوف!

وإذا ما أُغرِمَ بك منذ زمن بعيد
مائةُ رجل، وقد راحت دماؤهم
تجري وتَهْدُر، لن يكون غريبًا
أن تكتشفي بينهم جبليًّا
اسمه رسول.

وإذا ما أُغرِمَ بك عشرةُ
رجالٍ حقيقيين،
دون أن يخفوا نيران لوعتهم،
فسأكون من بينهم أيضًا،
وقد رحتُ أبتهجُ وأتفجّع –

أنا رسول حمزاتوف.

وإذا جُنَّ بك رجلٌ واحد فقط،
يا مَن لا تهوى الوعود،
فَاعلمي، أنه جبليٌّ من قِممِ الضباب
يُدعى رسول.
وإذا لم يُغرَمْ بك أحد
وصرتِ حزينةً أكثر من أمسيات الغروب،
فهذا يعني أنَّ رسولَ حمزاتوف
قد دُفِنَ في السفح البازلتي للجبال.

9

أغنية عن الحب

أيُّ الألوان الزاهية أكثر روعة؟

- قوسُ قُزحِ خلف ذلك الجبل!

وما هو الأكثر زهوًّا وضياءً منه في الكون؟

- قوس قزحِ الحبِّ عند البشر!

ما هو الأكثر احمراراً في الدنيا؟

- الشعلة في منتصف الليل،

والدمُ وقتَ الظهيرة.

وما هو الأكثر احمرارًا وأكثر؟

- الحبُّ لأوّل مرّة!

ما الذي يُزهرُ ببهاء أكثَرَ من كلِّ شيء؟

- العشب في شهر أيار.

وما الذي يزهر أكثر وأكثر؟

- كلمات العاشقين.

حزينٌ - اللونُ الطبيعي للأغصان العارية.
واللونُ الأصفر للحب غير الوفي فقط -
هو الأشد حزنًا.

ما هو الأكثر سواداً؟
- الضجر، والليل عندما يغيب القمر.
وما هو الأكثر فالأكثر سواداً؟
- الفراق المكتوب للعاشقين.

10

للأزهار عيون

أنا مُستعدٌّ أنْ أجادلَ العالمَ بأسره،

ومستعدٌ أنْ أُقْسِم برأسي

أنَّه ثمة عيون لكلِّ الأزهار،

وأنها ترنو إلينا – أنا وأنتِ.

أذكر أنني قطفت، ذات مرّة، في أيام غابرة –

أزهاراً من مرج الغابة لحبيبتي،

فَتطلعتِ الزهورُ إليَّ كما لو أنها تقول:

«سوف تخدعك!».

عبثاً انتظرتُ، وعبثاً ناديتُ،

رميتُ الأزهار فاستلقتْ على الأرض،

ثم قالت وهي ترنو بنظرها إلى البعيد:

«لا ذنبَ لنا في حزنك!».

لقد رأيتُ: في ساعةَ التأمّلِ والقلق،

في ساعة الخيبة واليأس المريرة

كيف إنَّ الأزهار تبكي كالبشر،

وهي تذرف الدموع فوق التراب.

وحين نهاجر من موطننا العزيز،

تنظر إلينا الأزهارُ المختلفة في لحظةِ الوداع

وهي تهزُّ رؤوسها في أثرنا.

وفي الخريف حين تكون الحدائق كئيبةً،

والأوراق صفراء وملساء على الأغصان،

تتذكّر الأزهار أيامَ ربيعها،

فتحزنُ في أحواضها وهي تنظر ساهية.

أدعو كلَّ مَن لا يصدّق ذلك لزيارة الحديقة،

وسترون كيف أنَّ جميعَ الأزهارِ

تحدّق في الناس بطمأنينة،

وهي تطرف بعيونها ببطء،

مثل الأطفال في المهود!

تتطلعُ أزهارُ الأرض إلى أعماق أرواحنا

بنظرةٍ حنونةٍ لجميعِ مَن هم بقربنا.

أو بنظرة من الحياة الآخرة

يرنو بها إلينا جميع أولئك الأصدقاء،

الذين فارقونا إلى الأبد.

11

ليحيا عالمُ النور...

ليحيا، رغمَ أنفِ الشرّ،

عالمُ النور الذي لا يتكرر،

لتحيا عيناكِ،

يداكِ،

والكلمتان التي ننطق بهما...

والقرنُ المعقَّد كما هو بسيط،

واليومُ الذي ولِدْتِ فيه.

لتحيا آلافُ النجوم،

التي تنظر إلينا.

12

أخي البكر – جنديٌّ

أخي البكر جنديٌّ

وليس نائباً[26]،

استشهدَ قرب نهر الفولغا

في معركةٍ ضارية.

وأمُّه العجوز لا تزال تلبسُ

منديلَ الحدادِ إلى الآن،

ينهشها الحزنُ والأسى.

يؤلمني وأشعرُ بالمرارةِ

لأنني أصبحتُ أكبرَ سنًّا

من أخي البكر.

---

(26) - وردت كلمة "نائب" في النص الأصلي عند رسول حمزاتوف كما تلفظ باللغة العربية..

13

كثيراً ما أحسَبُ...

كثيراً ما أحسَبُ أنَّ
الأرضَ بأكملها بيتي الحميم.
وأن كلَّ معركة مع نيران وقصف،
وأينما كانت – تعني أنَّ بيتي يحترق،
أنَّ بيتي يحترق.
القرنُ العشرون، وليس أي قرن آخر،
بات في دمي وفي قَدَري –
وتتعارك السنين فيما بينها...
أينما كان رعدٌ ونارٌ ومعركة –
نحترق وإياك، يا قلبي، سوية.

14

شكرًا

شكراً للدروب: وقد جدلتِ منها حبلاً،

وحملتِ العالمَ على ظهرك، مثل جرّة الماء.

وقوس قزح انتصب بحذق

وقد راح يتلألأ حين لامَسَ القمم الحجرية.

شكراً – فقد نَجْوتُ هذا الشتاء،

والصيف مرَّ – للأسف – مثل لحظة!

لم يَغْفِني المصيرُ من الكأس –

بل تجرّعتُ الحزنَ والمرارة.

لم تكنِ الأمطارُ شحيحةً علينا،

والشمس دفّأتنا كفاية دون أن نحترق.

شكراً للبريد: لقد وصلت رسالتك،

ولو متأخرة، مع ورقة حندقوق.

شكراً للطير إذ راح ينقرُ النافذة،

معلنًا بداية النهار:

راح يدقُّ – إذ أقْلقه كثيرًا

الأرقُ الذي يعذِّبني.

تحية إلى الأرض، لأصدقاء روحي:

كم صاروا قلّة – عند النهاية..

كم عانيتُ من ظلم الأقرباء،

ولكنْ لن أقولَ بحقّهم كلمة بغيضة.

شكراً للحبِّ، للموسيقى وللكلمة!

وسأسكتُ عن التفاهات والمشاكل.

لا أتمنّى الشرَّ لمن ارتكبَ الشر،

لكن أنْ أتذكّرهم ليس لديَّ رغبة...

15

أغنية

النساءُ، والخمرُ والأغاني،

في اليوم الصحو وفي اليوم الماطر،

أهدتني دوماً الأصدقاء،

والأعداء أيضا أهدتني.

في أيِّ ميزان كان

يودُّ المصير أنْ يوزنهم؟

يبدو، كانت كلتا الكفَّتين

ستميلان بالتناوب...

صرتُ أخشى النساء

ولم أعدْ أقتربُ من الخمر –

الصديقُ صار عدواً فجأة،

والعدو صديقاً صارْ.

النساء والخمر والأغاني

وثمَّ، كما في البداية،

قدمتْ لي الأفراح.

ولكن حَدَثَ أنها

بالأحزان أيضًا جاءتني.

النجاح كما الإخفاق

أقيسه على مقياسي الخاص:

في ميزان الحبِّ أزِنْهُ،

بذاك الميزان الأمين – أثِقْ.

النساء والخمر والأغاني!

أنا لم أتخلَّ عنكنَّ –

فقط خابَ ظني بالصديق،

والعدو عدواً لم يكن...

16

لم تعرفي منافسات لكِ أبدًا ...
مكتبة سُر مَن قرأ

أحب الليالي السود، كما البارود،

أحب العشَّ الأهليَّ – بلدتي تسادا.

أحبُّ جميع النساء، اللاتي لم تعرفي

منافسات لك من بينهن قط.

أحب أن أبقي ذرى الجبال نصبَ عيني،

وقد قسّمت جميع النساء في الكون

بين حدود الأرض والسماء

إلى: أنتِ وباقي النساء.

أحبُّ عندما تحملني القطارات وهي تتلألأ،

عبر الربوع المفتوحة على مداها،

أحبُّ جميع النساء، اللواتي لم تعرفي

من بينهن منافسات لك أبدًا.

سواء كنتً واقفًا على جرف صخري،

أو كنت أسبح قرب شواطئ غريبة،

فكلُّ النساء في الدنيا موزعة من قبلي

إلى: أنتِ وباقي النساء.

17

لِوَجهِ الحقيقة

كثيراً ما رأيتُ الثلوجَ في الجبال الخضر

وصادفتُ في الشمالِ بشّارةَ الجنوب،

كما رأيتُ العدوَّ في عيون الحبيبة،

ورأيتُ صورةَ الصديق القديم

في عيون مَن لا أحب.

دخلتُ ذات يوم بيتَ جارٍ لي،

وقد خان ربُّ البيت ضميره،

فَ راح يوافقني في كلِّ ما أقوله

أثناءَ حديثنا تلك الليلة، حتى ولو لم أكن مُحقاً.

فمَن هو ذاك المسامر:

هل كان عدوّاً أم صديقاً؟

وفي إحدى المراتِ كتبتُ هراءً في شعري،

وهل إطلاق النار في الهواء بالأمر العظيم؟

فقال لي أحدهم ولم يكن صديقاً،

الحقيقةَ كما هي بلا تزييف.

لمستُ آنذاك في رأيه صورةَ الصديق.

وها أنا ذا الآن أزداد أسى، مع السنين،

فألُقِّمُ النار بعض دفاتري،

وأكره نفسي أحيانًا كما لو أنَّها عدوٌّ،

وفي هذا يكمن خلاصي،

الحقُّ يُقال!

18

أنا – كلب الحراسة لداغستان

أنا – كلب الحراسة لداغستان،
أنتفضُ، أنا المقيَّد إلى مصيره،
بِمُجرَّد أنْ يصفرَ،
وأطير كما لو مِن جرحٍ بسكين
تلبية للنداء العظيم من جديد.

ألستُ أنا مَن أخذ على عاتقه
أن يحافظ على جباله، ومجده، وثقافته؟
وستبقىَ إحدى النسوة واضعةً يدها
على رأسي على الدوام بمحبة.

وأن أبقى أحرس المدخل إلى دائرة النجوم،
حيث يتحادث الأنبياء ليلاً،
بعد أنْ تمكّنتُ من اجتياز الجداول الهادرة
سباحة على شرف خدماتي الجليلة بالذات!

19

خمس مواعظ

1

طالما أنَّ الآخرين لا يروقون لك،
فلا تنتظر منهم محبّةً تجاهك.
ولا تُحمِّلْ وجدانك ثقلاً كبيراً،
كي لا ينهار الجسر وأنت تجتازه.

2

تذكّر أنّه يوجد في صدرِ العدوِّ
قلبٌ حيٌّ وليس جبنةً،
وأنَّ الخِصامَ لأمرٍ تافهٍ
يحطُّ من شأن أيِّ مقام.

كنْ على ثقة أنَّ صوتك الرنّان
يصبح مكتوماً في الجوقة الكبيرة،
وأنَّ خناجر الخصم أحياناً
ليست أسوأ مما لديك.

3

لن يكونَ خَيَّالاً ماهراً ذاك

الذي لم يسقط عن الجواد من غير قصد.

إذا كنتَ تعرِجُ في أغلبِ الأحيان

فلا تصبَّ جامَ غضبك على الحيوان.

ولن يكون شاعراً حقيقياً ذاك

الذي لم يمزِّق في قلبه المسودّات.

وإذا لم تكن تعرف ذلك،

فلا تلقِ اللومَ على الأشعار.

4

كي يجتاز المرء مضائق شديدة الانحدار،

يحتاج أموراً عديدة –

جسداً فولاذياً وروحاً حيّة،

والصديق القديم

أفضل من اثنين جديدَين.

حين تكون الروح مفعمةً بشهوةِ الربيعِ،

لن يعنيها بشيءٍ طقسُ الشتاء الماطر.

وسيكون ثمة سببٌ للحبور –

رسالةُ الحبيبةِ عن ولادةِ صبي.

5

مَن استسلمِ للحزن يوماً

لن يستطيع حفظ السعادة أيضًا.

ومَن لم يخبرِ المخاوفَ أبداً،

لن يعرفَ البسالة إلى الأبد.

20

عبثاً عرفتُ الحميّةَ

عبثاً عرفتُ الحَمِيَّةَ

وأمسكتُ باليراع،

عبثاً أيقظتُ الرحمة حبًّا بالخير.

عبثاً جريتُ في الأرض الممتلئةِ قلقاً،

فكلُّ الدروب في العالم

كما لو أنها تقود في دربٍ واحدة!

عبثاً أُوصيَّ بالنارِ لي،

وعبثاً كنتُ مغرماً حتى الثمالة

بألفِ امرأة – فكلّهنَّ كما لو واحدة.

عبثاً سفحتُ عرق الجبين

وأنا أخوضُ المجادلات مع الجهلة –

فقد تسقط جميعُ الجبال

دون أن نفوزَ في الجدال مع أحمق.

عبثاً بكيتُ على الأمواتِ

طالما أنني سأرحل أنا بالذات،

إلى مملكة الممحوين بفعل الزمن

من ذاكرةِ الأحياء بكلِّ وضوح.

عبثاً آمنتُ بحسن الحظِّ

في لحظة أكثر الأيام سوءاً.

فمَن أنا؟ وماذا أعني؟

وربما لا وجودَ لي؟

«لا، ليس عبثاً!» – أجابني ذلك السطر

الذي ظلَّ وفياً من بين آلاف السطور،

تماماً مثل الابنة.

«لا، ليس عبثاً!» – تعلنُ إحدى النساء،

تلك التي احترقت كما الخريف

وكانت مخلصةً لي.

«لا، ليس عبثاً!» – تهمس وريقة حمراء

ساعةَ الغروب،

وريقةٌ تغنيتُ بها ذات يوم،

تهمس وهي تطير بين السطور.

«لا، ليس عبثاً!» – مزّقت عِضَاهةٌ[27]

موطئَ أقدامي.

---

(27) - عضاهة – نوع من النباتات الشوكية..

«لا، ليس عبثاً!» – ورفعِ القريبُ الزنادَ

خلسةً.

وخلسةً تنهض الحياة أمامي من جديد،

فوق الجرف الصخري، في البردِ وفي الحرِّ –

تارةً كأرملة وعروساً تارة أخرى!

21

إلى شاعر شاب

صديقي الفتي!
بسببِ ما ارتكبتُ من آثام،
هيهات أنْ أغدو لك أستاذاً...
لكنْ تذكّر أنَّ القصائد –
لا يمكنها أن تُولَدَ في روحٍ
ليس فيها صدى للحزن.

أنا سعيدٌ بالتفاؤل الصادق،
/ وقد سبق وكنتُ ممتناً له مع ربح زائد/.
إلا أنَّ الكفنَ، كما فستان العرس،
يخيطونهما في الجبال بنفس الإبرة.

كنْ على ثقة...
وأنا أعرف ذلك لا من الكتب –
إنَّ الألم يتعقَّبُ السعادة.
وإنَّ الشمسَ إذ تفجّرِ الينبوعَ،

تَخْلقُ النهرّ الذي يصبُ في البحر.

تغنَّ بالحبِّ بأبياتٍ مجنّحةٍ،
لكن لا تنسَ أن تضع ثلاثَ نقاط...
ففي صدر ذاك الذي يسأمُ السكينةَ،
يغلي الحقدُ إلى جانب الحبِّ.

لا تستعجلِ الريشةَ، كما لو أنها جواد،
كيلا تسقط من السرج من دون قصد.
لا تشرب نبيذاً لم يختمر بعد،
ولا تلمسْ ثمراً غير ناضجٍ
ما لم تكن مرغمًا.

22

الموتُ لن يقتربَ مني

الموتُ لن يقتربَ مني –

فأنا أنتمي إلى الربيع.

طالما أنني أزرعُ القمحَ

سوف يتكفل الربيع بي

وأوراقُ الحديقة الوارفة،

وسيبتعدُ الموتُ صاغراً...

كلا، لن يأتي الموت لأجلي،

طالما أنني أشيّدِ بيتاً

على الأرض العزيزة بنفسي،

سوف يفرُّ الموتُ هاربًا،

عندما سيرى الجدار وهو يرتفع،

إلى الغابات الممتدة خلف الجبال...

كلا، لن يجرؤ الموتُ أنْ يقترب مني،

ذلك الموت الأعوج، النحيلُ كعود ثقاب،

طالما أنني ممتلئ بالأشعار وبالأغاني...

والحبُّ أقوى من كلِّ موتٍ!

فلا تنعق، أيها الغُراب.

لن يجري الموتُ خلفي،
فهذا يعرِّضُهُ للحرب –
إذ سوف أقاتل حتى آخرَ نفسٍ!
وهو سيهرب مثل عنزة إلى الجبل،
عندما سيعرف رديَّ المرعب،
وسترتفع سحب الغبار فقط!

لن يقترب الموت مني...
وإذا ما ألقى نظرةً، وهو يتسكع
ليلاً في ضوء القمر،
فسوف أقول له: «هيا اغربْ من هنا،
فأنا مستلقٍ وقد احتضنتُ
المرأةَ الحبيبة!»

وإذا ما غامر وعاد إليَّ من جديد،
لن أسمح له بالدخول، للعلم،
بل سأقول له: «انظر، أيها الشرير،
أنا محبوبٌ من قبل الأطفال والأحفاد،

وأنا من سلالة لا تنقرض!

وإنَّ خلودَ الروح والحياة –

أمر ملغز...».

وإذا غامرَ وقرَّرَ العودةَ لمرَّة ثالثة

فسأقدِّم له قصائدي: «هيَّا اقرأ!

فأنا لم أسرقْ شطراً واحداً.

ولم أكذبْ يوماً في أشعاري.

هذا تعرفه كلُّ منطقة هونزاخ،

ويعرفه الفتيان والبنات».

لا، لن يأتيَّ الموتُ لأجلي،

طالما أنَّني أخدمُ الحقَّ

والخيرَ في هذه الأرض الغالية.

ولكن إذا فعلتُ أمراً مشيناً،

وانفضحتُ، يا أصدقائي –

دعوا الموت يأتِ حينذاك

وينلْ مني على الفور!

أقسمُ أني سأقولُ له وقتها:

ادخلْ، أيها المرغوب به، بسرعة،

فأنا أنتظرك منذ زمن بعيد –

هيا وارِني التراب البارد الرطب....

لكنَّ هذا لن يحصل!

فالموتُ لن يأتي لأجلي.

23

حبيبتي أنا أطلبُ الصفحَ

حبيبتي، أنا أطلبُ الصفحَ من جديد،
ومرّة أخرى أنتظر غفرانك.
اغفري، سامحيني على خطاياي،
التي ارتكبتها في العام الماضي!
اغفري لي لأني أكثر من مرّة
ندمتُ وكنتِ تقبلينَ توبتي.
اغفري لي كلَّ دمعة من دموعك،
كنتِ قد ذرفتِها بسببي.
اغفري لي يومَ كنتُ أختفي
في الأسفار بشغلٍ وبلا شغل،
فكنتِ تعدّين الأيام والليالي الطويلة،
أما أنا فلم أكن أعدّها أبدًا.
اغفري لي عمى بصيرتي، ما منعني
من رؤية ما جلبتُ لك من متاعب،
واغفري لي صممي الذي منعني من سماع
شكواك مع أنه كان بإمكاني سماعها!

24

أحبُّك، يا شعبي الصغير

أحبُّك، يا شعبي الصغير!

تُحسنُ لقاء الحزن بصرامة،

من دون دموع، بلا حيرة،

وتجيد السعادة من دون أنْ تتباهى.

أليستْ أغانيك هي التي تشبه

طيرانَ النسر البطيء،

ورقصات الفارس الذي نسي اللجام

وراح حصانه يطير!

لم يبهتْ طبعُك الأبيُّ،

والعِبْرةُ في كلامك ما زالت حيّةً.

أواه، كم أحبُّك بقلبٍ جبليٍّ

أنتَ، يا شعبي الصغير!

ففي زحمة الجبال،

حيث الضبابُ مجدولاً في قيدٍ غليظ.

قلبك مفتوح دائماً،

وواسع دوماً كما السهل.

تحيا دون أن تتنازع مع الجيران،

وخلعتَ عنك خنجر الأجداد،

أنا لم أعد جاهلًا كما من قبل،

وأنتَ أيضًا تغيّرت بدورك!

القطاراتُ ترعُدُ عند قدميك،

ومِن على كتفِك تُقلع طائرة.

أحبك، يا شعبي الصغير،

كونك ابنًا لدولة جبارة!

25

ورود شيراز

إلى ميرزو طورسون – زاده[28]

تكلل كَرْمةُ الأشعار

صدرَ كلِّ قَرن.

أنت تذكر، يا ميرزو،

كيف ودّعتنا أنا وإياك

ورود شيراز عند الرحيل.

ما مِن شيءَ يُحسَدُ على حظِّه أكثر منها،

حيث قبة الصباح مليئة بالزهور.

ومهما مضى عليها من الوقت،

فإنَّ حافظاً[29] لن يدعها تذبل.

ها هي أولى العواصف الرعدية

تتصاعد فوق المدينة،

---

(28) - شاعر وكاتب طاجيكي 1911 – 1977.. كتب باللغة الروسية والطاجيكية. أُطلِق أسمه على واحدة من المدن الطاجيكية.

(29) - المقصود هو الشاعر الفارسي العظيم حافظ الشيرازي.

وها هي طلائع الخطاطيف

راحت تحلِّق.

لا بدَّ أنك تذكر، يا ميرزو،

كيف بدتِ الورودُ وكأنها

ارتدتِ الخُمرَ وهي تودّعنا.

راحت تهمس قائلة لنا:

«من الإِثْم العجلة!

لِ تؤجّلوا سفركم ليوم واحد.

وسنكشف وجوهنا أمام ناظريكما،

وستبدو مثل أجمل عرائس شيراز.

صدِّقني، يا ميرزو،

كنتُ قادراً على أنْ أُمتّعِ نظري

بجمالها منذ الفجر وحتى المغيب.

آه، يا ورود شيراز!

وقد تغنّى بها حافظ ذات يوم،

فإنه لن يسمح لها أنْ تذوي»!

رواية شعرية

عام مولدي [30]

(30)- كتب رسول حمزاتوف هه الرواية الشعرية في نهاية الأربعينيات من القرن الفائت بمناسبة مرور ثلاثين سنة على تأسيس جمهورية داغستان على الوضع الذي نعرفه الآن وضمِّها إلى جمهوريات الاتحاد السوفياتي... ويعتبر عام 1920 عام تأسيس الجمهورية ويحتفل به كمناسبة وطنية... وقد احتفلت جهورية داغستان حكومة وشعبًا عام 2020 بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس الجمهورية...

فصل أول:

يومَ وُلِدتُ

ينظرُ الآول[31] نحو الأسفل، محصورًا بين الجبال،
مثل حمل وقد أضحى بينَ أنيابِ ذئبٍ،
ووقف بيتي مُعلقاً فوق الهاوية
مثل عشّ هش في السفوح العالية.

هنا، إذن، قُدِّرَ لي أنْ أُولدَ.
وُضِعتْ علامةٌ على متن الباب،
وبذلك أُفتتِحتْ أولُ صفحةٍ
من صفحات سيرتي الذاتية.

أنا وُلِدْتُ لامرأة داغستانيةٍ فقيرة
في أصعبِ عامٍ من أعوام الجوع،
حين كانت تنهضُ العائلة مع الفجر
لتجمعَ الحشائشَ من أجل طعام الغداء.

(31)- الآول – هو مجموعة البيوت المنتشرة في جبل من جبال داغستان... ويقابلها في العربية – القرية أو الحي.

كانت الريحُ الصقيعيةُ تلسع بألمٍ،
إذ تجتاح البيتَ مثل صاحبه
حين يغضبُ.
وكان الجراد الجائع
يغطّي قطعةَ الأرض التي ندعوها حقلاً.

عندما وُلدتُ لم نشربِ الخمرَ
ولم يختاروا لي اسماً على الفور.
كان أبي يشارك في الحرب،
فَتمَّ تأجيل الاحتفال لبعض الوقت...

لا، لم يُطلقِ الجيهيت الرَّصاصَ على شرفي،
ولم يحتفلوا.
لم ينشدوا أيَّ أغنية،
أما أبي فقد أردى مجرمين بالرصاص–
ربما على شرف ولادتي.
لم يشترِ لي أحدٌ ألعاباً،
لم يدللني أحد، ولم أُعطَ هدايا،

لكنهم بعد شهر فقط من ولادتي
وضعوا خنجراً من السنديان
تحت وسادتي.

كان محفوراً عليه بحروف كبيرة
اسمٌ خطّه أبي من بعيد.
فلماذا دعوني بهذا الاسم؟
إذ لم يكن في العائلة من قبل
اسمُ علي.

لطالما تفاخرتُ باسمي،
لأنَّ أبي اختاره على شرف مقاتل
استشهدَ بين يديه في ذات اليوم،
الذي عرف فيه أني وُلدتُ.
مضتِ الأيامُ سلسلةً طويلة،
ودخلَ الشقاءُ إلى بيتنا،
حيث كانت الأرض فراشًا لنا،
وكانت الجدران من الطين،
وسقف البيت من الحجر.

حيث نسجتِ العناكبُ خيوطها،
وزحفت الصراصير بين الثقوب،
وحيث راحتِ العواصف تهزّ سريري
وهي تنداحُ عبر قطعة قماشٍ على النافذة.
حيث كانوا ينشدون نفس الأغنيات
قرب السرير دائمًا،
وأنا أتذكر حرفياً حتى الآن
أغاني تلك النساء الجبليات.

«أين تفسّحَ، أين راح،
دنهير – دنهار شو[32]؟».
«ذهب إلى الغابة، هناك تفسّح
دنهير – دنهارشو!».
«هناك قَطَعَ الأخشابَ
دنهير – دنهارشو!».

«أأنتَ بكامل عقلك،
يا دنهير – دنهارشو؟».

---

(32) - دنهير – دنهار شو: بطل فلكلوري لدى شعوب القوقاز الشمالي. المترجم

«أريدُ أنْ أبنيَّ بيتًا،

دنهير دنهارشو!

ستكون في البيت زوجة

دنهير – دنهار شو!».

«ما حاجتك للزوجة،

دنهير – دنهار شو؟».

«كي تمنحني ابناً.

أنا أريد ابناً!».

«وما حاجتك للإبنِ،

دنهير- دنهار شو؟».

«كي يكون أكثر فرحًا

وأكثر شجاعةً من الجميع،

كي يضحكَ ابني

ثمَّ يبكي وهو يضحك،

كي يرقص الليزغينكا[33]

على ديباج السرج،

كي يطيرَ إلى النجوم

على ظهرِ نسر،

كي يلتقطَ السمكة

من الماء بيديه،

كي يشربَ قرناً كبيراً

من الخمر حتى آخر قطرة.

كي يوقِفَ صفيرُهُ على الفور

الطيرَ الذي يحلّقُ عالياً

بكل اعتزاز.

كي ينزعَ ريشةً من جناحه،

كي يكتبَ بها شعراً

عن حياته وأحواله.

كي ينظم من الربيع أغنية ذهبية،

كي ينهضَ الآولُ

(33) - الليزغينكا: رقص جبلي فلكلوري تمتاز به شعوب القوقاز الشمالي وله أنواع مختلفة. المترجم

على صوت زورناه[34] الفتية.

كي يجفِفَ الأنـهارَ

بتنهيدة واحدة،

وأن يُحوِّل بضرباتِه

الصخورَ إلى غبار.

كي يشقَّ الدروب

في المروج، في الجبال –

هناك حيث تعجزُ

طيور الرخُّ عن التحليق.

كي يحلمَ فيما بعد على الدوام

بتلك التي ستصبح

زوجَه يوماً ما.

كي ترتدي أزهى الثياب،

كي نحتفلَ بالزفاف

مائةَ يومٍ متواصلة.

---

(34) - زورنا (من الاسم الفارسي سورناي) آلة موسيقية تشبه الناي منتشرة في جمهوريات القوقاز وأذربيجان وجورجيا .. المترجم

كي تمنحَنا هي فيما بعد فتىً
يشبهُ الأبَ ويشبه الجدَّ.

من أجل هذا كله
أنا أريد أنْ يكبر الأولاد،
دنهير – دنهار تشو!».

... جميلٌ الغناءُ قرب المهد،
هدهدوني ووعدوني أنَّ أبي
قريبًا سوف يعود،
وأنَّ عمّي سوف يأتي
ممتطيا حصانه.

سوف يأتيان في يوم سيكون
الأفضل من بين الأيام،
وسوف يحملان الهدايا لي،
سيجلسني الأبُ على الحصان،
وسيعلمني الصيدَ وجمعَ الحطب.

لقد غنّوا لي:
«سوف تصبح ذات يوم من الجيهيت،
وستنتصر على جميع أعدائك في المعركة.

في منطقتنا ربيع،
انظرْ يا علي!
ينجلي الشيبُ[35] عن الجبال،
انظر يا علي.

ها هي الجداول ترقرق
في البعيد، يا علي!
أزهار البنفسج أشعلتْ
أنوارها، يا علي!

عادت الطيور إلى أعشاشها،
اسمع، يا علي!
استيقظت الدببة،
اسمع، يا علي!

---

(35) - ينجلي الشيب هنا بمعنى يذوب الثلج عن رؤوس الجبال - المترجم

قريبا سيخطو علي

إلى الحقل.

قريباً سيأخذ علي

النهرَ في راحتيه.

الشمسُ الساطعةُ نهاراً

فوقك، يا علي!

وغطاء السماء الأزرق

فوقك، يا علي!

سكينةٌ في الليل

وقمر، يا علي!

وقِمّةٌ يجللها

الألقُ يا علي!

قريباً يحلُّ أيار عندنا،

انظر، يا علي!

باي وباي، هيا نمْ

حتى الفجر، يا علي!».

كنتُ أهدأ وأنام.

وكانت أحزانـي تنجلي،

لكن كي أغفوَ أنا،

كانت أمي المريضة

تسهرُ طوالَ الليلِ قربَ سريري.

كم أنتَ صعبٌ،

يا مصير النساء الفقيرات!

لكن هذه القسمة أصعب مرتين.

لأنَّ كلَّ الأطفال صغار،

والوالد – المعيل في الحرب.

الأطفال يبكون،

ويطلبون الطعام بعناد،

وليس من كسرة خبزٍ،

كما لو لسوء الحظِّ.

سامحيني!

أنا أفهمُ، يا ماما

كم كان مؤلماً بالنسبة إليكِ آنذاك!

لكنني كنت أضحك في القماط،

كأي طفلٍ بلا هموم، مجرّد حملٍ صغير.

الفصل الثاني:

لقاء الفدائيين

لم تحلمْ أمّي هذه المرّة

بالربيع ولا بوجوه الأعزّاء،

لأنَّ ذاك الذي لم تغمضْ له عينٌ

لا يمكنه أنْ يرى حلماً.

كانت أمي تنهض قبل الفجر

بهدوء كيلا تُقلقَ نومَ أحد،

كانت ترتب هندامها على ضوء القنديل

وتقوم بتسويةِ السطح بمدحلة من حجر.

ثمَّ تخرج لتستعيرَ رطليَن من الدقيق

تحملهما في حرجها،

وليبدأ الفحمُ بالاشتعال

في موقد كاد أن ينسى النار.

كلُّ شيء نظيف،

وقد أعادتْ تنظيفه من جديد ...

تمرّ الدقائق ببطء.

ما هذا الاحتفال اليوم؟

مَن هو الضيف في بيتنا؟

خرجت ماما من البيت وهي تحملني.

فَفكّتِ الريحُ جديلتها.

وما الذي يجري في الجوار؟ –

لقد خرج سكان الآول بأكمله إلى السطوح.

كلُّ واحدٍ يريد أن يتسلّق ما هو أعلى

كي يرى الدربَ بشكلٍ أفضل...

ومِن على سطح بيتنا المرتفع

يمكن لأمّي أن ترى ما يجري في البعيدِ

كما لو «على كفِّها».

هناك سهول جرداء،

هناك أشجارٌ عارية كالقرون،

هناك جبال عالية تشبه أسنامَ الجِمال،

شواطئ هناك، وأنهار جبلية.

هناك تشرئب أمواج نـهر هادر،

كما الذئاب وهي تـهاجم القطيع،

هناك شلالات تشبهُ عفرة الأسد،

وينابيع مثل عيون الطيور.

هناك درب وسط الصخور المعلقة

كما لو أنـها «تنبع» من الصخور،

هناك، من خلف الرابية

تنطلق أغنية وتسبقُ الناس

لمسافة فرسخ.

أغنية الفدائيين

«راح الأعداء يـهربون من أمامنا،

هرب الأعداء مرات ومرات،

واختبئوا بين الشقوق والوهاد.

كانت الأرانب البريّة سترى

كيف كانت تلمع السيوف بأيدينا،

لو كان لـها أعين من الخلف!

والأتراك من أنسباء الأرانب

كانوا سيسمعون أزيز رصاصنا

في ساعة المعركة الحامية،

لولا أنَّ الطلقات والقنابل

قد أصابت أشباه المقاتلين هؤلاء

بالصمم قبل نصف ساعة!

سبق وهجم علينا الإنكليز،

لكنهم باتوا في الأرض الآن،

حتى أنك لن تحظى بالعظام.

أمّا مَن استطاع الهرب فَدعه

يقصُّ على ملكه كلَّ شيء

بمجرّد أن يلتقطَ أنفاسه!

* * *

وتلمعُ «باشليك»[36] على رؤوس الفرسان

بألوانها التي تناسبُ لون الخيول.

ها هي ذا «باباخا» تطير في السماء

---

(36) - باشليك: قلنسوة أو طرطور من الجوخ أو من الصوف له نهاية علوية حادة يلبس فوق قبعة الرأس. المترجم

لتسقط مثقوبة بالرصاص.

وها هي الجبال الصخرية فوق الآول

تردِّدُ صدى إطلاق الرصاص ترحيباً.

هاهو الدخان يتطاير من المواقد

ومن الأفران فوق أسطح المنازل في الآول.

لكن الأبوابَ موصدةٌ في بيتٍ واحد فقط،

حيث لا دخان اليومَ هناك في الموقد.

في ذلك البيت تجلسُ زوجة العدو

وحيدةً دون أن تغتسل وأن تسرّح شعرها.

في ذلك البيت ثمة طبقةٌ من دهن قديم

تغطّي حجارة الموقد.

لِماذا هي أحجارُ الموقد في سخام قديم؟

لماذا هي باردة؟

لطالما كانت تفوح برائحة اللحم المشوي

وبرائحة «البرغل»

حتى في الأيام الشجية.

لماذا لا تخرجين أيتها الجارة،

بعد أن تغطي رأسَكِ بالتشوختو[37]»؟

منذ متى أصبحتِ لا تبرحينَ بيتك؟

لدرجة أنه ما مِن شيء يُبهجُك؟

لماذا لا تبدئين القيل والقال،

لماذا لا تعرضين للجميع ثوبك الجديد؟

ما بكِ، يا بيكا – يا زوجة جهبار،

لِمَ لا تستقبلين الفرسان الأبطال؟

انظري، لقد دخلوا الآول،

ها هم يترجلون عن أحصنتهم،

ها هنَّ زوجاتهم تأخذنهم بالأحضان،

وها هم المحاربون يقبلون الأمهات.

ها هم يقبلون الأطفال، أمَا ترين؟

اخرجي يا زوجة جهبار.

لا، أنت لم ولن تخرجي.

إنك تجلسين في بيتك وحيدةً.

لا نارَ ولا دخان – لا شيء

---

(37) - تشوختو: غطاء تضعه المرأة على رأسها عند الخروج من المنزل إلى الشارع ..

في الموقد الذي تفتشه يداك.

هناك حجر يغطيه الدهن فقط،

كما لو أنه حجرٌ على قلبكِ بالضبط.

***

أما أمي فما لبثتْ واقفةً،

واقفة خلف البيت.

وَسَطَ الكتل الترابية.

بينما راحتِ الشمس تتدحرجُ

ببطءٍ خلفَ جبال غونيب[38]

مُودِّعةً إياها.

بيدَ أنَّ أبي لم يفتح البوابة

ولم يضممني إلى "التشيركيشكا"[39].

الدار خالية ولا أحدَ فيها.

لا جيهيت ولا حصان.

أين هو الأبُ إذن؟

راحتْ تمسح أمي دموعها

---

(38)- إحدى المدن التاريخية في داغستان...

(39)- تشيركيشنيكا: الاسم الروسي للسترة المصنوعة من الجوخ والتي تلبس فوق الثياب في مناطق القوقاز وفيها جيوب مخصصة للخرطوش.

وهي تنظر إلى ما وراء البوابة.

لماذا لم يأتِ عمّي؟

لماذا لم يحضر هدايا؟

كيف حَدَثَ ذلك؟

أيُعقل أنْ تخدعنا الأغاني

التي رددوها فوق رأسي

في السرير عاماً كاملا،

وتلك الأحلام التي راودتني في الليالي؟

ها هو حصان يمرُّ متعثّراً،

وقد راحت الرُكَابُ تخبط في جنبيه.

وها هم الجيهيت يحملون شخصاً

على أيديهم بصعوبة.

ثمة دوائر سوداء مهيلة حول عينيه!

ما الذي جرى لرأسك المشاغب؟

هكذا عدتَ إذن إلى البيت

يا شقيق أبي، يعني يا عمي الحبيب.

على أساسِ أيِّ قانونٍ جبلي،
يحملُ إنسانٌ من نفس «عائلتك»
حقداً قديماً دفيناً في قلبه
فيرصد خطواتك في الليل؟

لا، لم يكن صاحبَ حقٍّ
قديم وعادلٍ في الثأر
فقام بتهديدك بالقتل انتقاماً.
قاتلك هو نسيبُك في الدم،
قاتلك – عدّوٌ لك في الصراع الطبقي.

هذه ليست قوانين الشريعة،
بل قوانين الطبقة هي التي
قسّمتِ الناس إلى أعداءٍ ألِدّاء
وإلى أصدقاء أوفياء.

مَن بقيَ أيضًا في البيوتِ
وعلى السطوح!
هيا تعالوا، أعزائي، إلى هنا!

عليكم أنْ تسمعوا الآن الحقيقة
وأنْ تذكروها إلى الأبد!

لقد اختبأتَ، يا جهبار، خلف حجر
ثمَّ أطلقت الرصاص على قريبك!
لقد قتلتَه لأنه عانى
لسنوات طويلة من قهرك
ومن ظلمك!
لأنه كان يمشي كلَّ يومٍ
وهو منكبٌّ على محراثك،
كي تنام أنتَ حتى الظهيرة
مع زوجتك البدينة بيكا[40].
لأنه، وهو الأجير الفقير،
كان يقود ماشيتَك إلى المراعي البعيدة،
كي يسيلَ على شاربك الكث
دهن اللحم المشوي.
ولأنَّ الرياح هبّت على الآول
من خلف الجبال، من روسيا،

(40) - بيكا: اسم علم.

ولأنَّ أجيرك استطاع أن ينظرَ
إليك باحتقار لأول مرة.
ولأنه قادَ سريّةً من أهل الآول
بين الثغور الجبلية الوعرة
حاملينَ راية قادة تاريخيين،
وهم يردّدون هتاف الفدائيين.
ولأنَّ الفدائيين تمكنوا وهم يسيرون
في ممرات مجهولة، من القضاء
على النخبة من عصابات خليلوف
ومن مرتزقة الحاج اوُزون[41].

نعم، يا جهبار،
إنّك تُجيد التصويبَ في الظهر.
وأنتَ حاقد، لا تنسى شيئًا،
فأرديتَ عمّي قتيلاً
بمسدس أجنبي جديد.

---

(41) - خليل وأزون: مقاتلون قادوا عمليات عسكرية ضد الجيش الأحمر أثناء الحرب الأهلية في روسيا بعد انقلاب أكتوبر وتأسيس الاتحاد السوفييتي في عشرينيات القرن العشرين...

كان يرمح تحت معطف آنديكي[42]
فاردًا جناحيه.
وإذ برصاصة إنكليزية الصنع
تئز وتخترقُ صدرَهُ.
هكذا، قُتِلَ عمّي،
شقيقَ أبي، على يد خائنٍ
برصاصٍ أجنبيٍّ،
رصاص أطلقه جهبار.

* * *

لم أكن آنذاك تجاوزتُ سنتي الأولى.
حين سقط المقاتل من أجل الحرية،
سقطَ دون أن يراني،
وقد أردته يدٌ آثمة.

قتلوكَ لكنها ستبقى حكاية
عن البطل الذي قاتل الأعداء.
قتلوكَ، لكنها لن تموت سيرةُ
بطولتك المُشرّفة.

---

(42) - الأنديك: أقلية عرقية متفرقة في مناطق القوقاز.

ستبقى بندقيتك التي خضتَ معها المعارك الحامية،

و«سترتك» التي كنت ترتديها

معلّقتيَن هنا على الحائط...

لعلّهما من أفضل الهدايا

التي أنشدوا لي عنها الأغنيات.

سوف تعبرُ سحب كثيرةٌ فوق الجبال،

وسوف تمرُّ أيام عصيبة كثيرة،

وسيتعلّمُ الطفلُ الكثيرَ الكثير

من هذه الأشياء التي تخصُّ ذكراك.

فصل ثالث:

وهكذا، قسَّمَ النضالُ العظيم
في سبيل السعادة
شعبَنا بأكمله إلى فئتين.

النسور حاكت أعشاشها
بين الصخور العالية.
واستوطنت بقربها الغربان...
صارتِ الأزهارُ في حقول الآول
تُعطي العسل والُسمَّ بآن.

هكذا، في لحظة حرجة من حياة
الوطن العزيز، انقسمَ شعبُنا الفقير
بفعلِ قوَّة هائلة جامحة
تُسمَّى الصراع الطبقي.

أضرمت النار في حريق هائلٍ
دفعَ جهبار إلى المجرمين
دون أنْ يخفي وجهه،

وحمل أبي إلى صفوف الفدائيين.

آه، يا أبي، كم خضتَ معارك
مع الفصيل على وقع الرصاص،
فلماذا لم تحضر إلينا إذن،
حين جاء الفصيل إلى الآول؟
عندما جاء إلى القرية الحبيبة
الجرحى المصابون في المعارك،
وأولئك الذين تنبّأ لهم التنجيم
بالحصى أنهم لن يعودوا على الإطلاق.

قل، يا أبي، ما الذي منعك
كجنديٍّ في تلك الساعة من المجيء
كي تلقي أوّلَ نظرةٍ على ابنك،
وكي ترى شقيقك لآخر مرة؟
كنتَ تعرف بالطبع أنه، حسب العادات،
حسب الأعراف القديمة في جبالنا:
عدمُ وداعِ الأخ عند القبر –
جريمةٌ كبرى وعار.

في ذلك اليوم راح الناس والبيوت المحترقة
يطلبون منك المجيء إلى الآول برجاء،
في تلك الأيام انتظرناك في العائلة
بفارِغ الصبرِ - قبل أنْ يأتي الشتاء.

ألمْ تسمع كيف راحت أمّي
تغنّي وتناديك بلا توقف؟

أغنية

«الطقسُ العاصف ليلاً غاضب.
أحدهم ينقر على شبّاكنا.
إنه المطر وليس أنت.

ها قد فتحَ أحدُهم بوابتنا
في الليل بصرير.
إنها الريح وليس أنت.
عاد الأب إلى أفراخه
من بعيد قبل الموعد.
إنه الصقر وليس أنت.

ها قد عاد الجدُّ في رداء ابيض

بعد أن نثرَ «الطبشور»[43] على الجبال،

إنه الثلج وليس أنت.

فارسٌ يعبر بمحاذاتنا

ليلًا ونهارًا بدون كلل.

إنه الوقت وليس أنت.

أحرقتنا الشمس وأحرقنا الصقيع،

لكن الدموع لا تجفُّ.

أنت وحدك مَن يجففها.

كانت الشمس وكان الصيف.

لكن القلب لم يدفأ.

أنت وحدك من يدفئه».

* * *

لقد سمعتَ كلَّ شيء!

ورأيتَ دموعَ ابنك،

---

(43) - هنا المقصود هو الثلج.

رأيت دموع أمي وبيتنا البارد.

لكنك لم تأتِ.

فيما بعد عرفتُ أنه كانت

لديك أسبابٌ وجيهة.

***

احتاج الفارسُ أربعة أيام

كي يقطع المسافة.

مَن سار على ذلك الدرب فيما بعد،

كان سيلاحظ أثاره،

كان سيجد عدداً كبيراً

من الرصاصات الفارغة،

وحصانا مقتولاً.

وبجانبه زمزمية ماء معلّقة

في حزام قوقازي،

وآثارَ دمٍ يابسٍ على الرمل.

كم كان صعباً مسيرُ الأيام الأربعة!

بحيث أنَّ الفارسَ حين بلغ مقصدَه،

لم يكن يملك ما يكفي من القوة

كي يشير بيده المُتعبة إلى صدره.

استقبل الفدائيون رفيقهم

في ثغور تلاروتا[44] المخفية،

صنعوا ضمادات من منشفة

وقاموا بربط مكان الجرح.

لم يكن في الصدر جرح قط، لا.

بل كانت مخبّأة هناك بالقرب

من القلب رسالة خاصة.

كان الموقَد مشتعلاً.

فراح والدي يقرأ على الضوء المتلألئ

لرفاقه المقاتلين وعلى كامل الفصيل،

الخبر الذي حمله الساعي في الرسالة

وهو يتلكأ من مقطع لآخر.

لو أنَّ الخبرَ الذي استلموه للتوِّ

وصلهم قبل المعركة،

لكان الفصيل هبَّ وراح يخوض القتال

بعزمٍ ولكان انتصر في أي مجابهة.

---

(44) - تلاروتا – بلدة في داغستان.

لكن المعركة كانت قد أصبحت وراءهم،

لا إطلاقَ رصاصٍ في الليل ولا أنوار.

إذ جاءهم أمر: بالانتقال

منذ الصباح إلى قطاع آخر.

كان الأمر للمقاتلين: استعدّوا للمسير

إلى النقطة «ن» لأجل الحراسة،

وبما أنَّ الطريق يمرّ

بالقرب من الآول ومن الأهل،

سمح القائد لهم بالتوقف فيه

لمدة يوم كامل.

وبانتظار ذلك اللقاء،

كانت تخفق بقوة مضاعفة مئات القلوب.

أُضْرِمت المواقد،

وكان الوقت مساء في تشرين الثاني...

في تلك اللحظة وصل الساعي إلى الفصيل.

انطلق الفصيل مع الفجر

يعدو نحو الآول الغالي

مع أغنية حماسية،

أمّا حصان أبي فراح يطيِّرُ الغبار

لكن طريقه انحرف نحو جهة ثانية.

طارَ الأبُ وهو يرمح بمنتهى السرعة،
وراح يلقي إلى البعيد نظرة سعيدة!
إنه ذاهب كمندوب عن الفصيل
إلى المؤتمر،
المؤتمر الأول لشعوب الجبال.

* * *

غابات، حيث كل جذع بثلاثة باعات،
جبال شاهقة ومنحدرات سحيقة.
وفي مثل هذا المكان النائي
سوف يضلُّ طريقه حتى النسر،
وربما لن يجد الرخ الطريق.

لكن الأب يعرف هنا
كلَّ الدروب وكلَّ ممرٍّ في المغارة.
هنا أبي، برغم الرصاص،
مشى بالدم وعبَرَ كاملَ الإقليم.
إنه يعدو تحت الشمس وفي الظلام،

مختصرًا كل ثنايا الطريق الطويلة.
صاعدًا حينًا إلى أعلى قمّة عالية،
وهابطًا حينًا إلى أعماق وَهْدَة.

حيناً يشقُّ الضباب بهدوء،
وحينًا يضع يدَه على عينيه ويحدِّقُ في البعيد،
متخطيا معسكر العدو حينًا من فوق سفح،
وبين الصخور أحيانًا،
وهو يهرب من المطاردة.

ها هو مرتفعٌ يلوح في البعيد،
هناك، تحت شجرتي سنديان فتية،
توجد شاهدةُ قبرِ الرفيق علي.
(لقد أعطوني اسمي على شرف هذا المقاتل).

قفْ عند القبر العزيز!
فَ متى ستسنح لك الفرصةُ
لأن تأتي إلى هنا من جديد؟!
لكن الأب مستعجل:

هيا بسرعة، بسرعة، بسرعة!

دون توقّف لا في الليل ولا في النهار.

الدرب ضيق ومتعرج،

ها هو ينعطف بشدة نحو اليسار.

يعرف الأبُ أنَّ هذا المنعطف

يَبْعُدُ عن الآول سبعةَ أميال.

ها هي قمّةُ الجبل المجاور...

لماذا ترفع إلى الجبين يدك؟

هل ارتجف قلبك حقاً؟

قلبك الذي لم يرتعش في أية معركة!

أو لعلَّ الفارس سمع الآن،

وسط السكينة الثقيلة والضاغطة،

سمع بكاء زوجته

وأصوات أطفاله وهم ينادونه؟

إلى الأمام!

لا يمكن الاستعجال أكثر،

والاستراحة مستحيلة!

كم طويل الدرب!

نهارين وليلتين.

ويظنُّ الأبُ أنَّ الدربَ

كان أقصر أثناء المعركة بكثير.

ولكن، لكلِّ دربٍ نهاية.

لا تستعجلِ الحصان،

لا تهمزه، أيها الأب.

فصل رابع:

الحرية – نورٌ! الحلمُ – حرية!
من أغنية الفدائيين في داغستان

انتعشت مدينة تيمير – خان – شورا[45]
وانتشر الخبر لمسافة مائتي فرسخ
في كل آول، ومن بيت إلى بيت.

بدت القبعات الثلجية للجبال
في ذلك اليوم أكثر نظافة
وأكثر إشراقا في البعيد.
كما لو أنَّ الجبال احتفلت
في تلك الساعة مع معشر البشر.

وكيف لها ألّا تفرح
بمثل هكذا مناسبة،
وهي التي تشهد بصمتٍ

---

(45) - تمير - خان - شورا: اسم مدينة.. بعد عام 1922 صار اسمها بويناكسك.

منذ الأزل على القهر والحزن القديم.

ففي قريتنا، شاةٌ فارسي
أقامَ الولائم على جماجم الأطفال.
عندنا في الآول، سيف تركي
قطع رؤوس الكثير من الرجال.
وفي داغستان ثمة أراملُ
أولئك الذين طعنهم الإنكليز بالحراب.

كم أحرق الملوكُ وطني الغالي،
فقد كان بالنسبة إليهم مجرّد
قرنٍ مملوءٍ بالخمر- إذ يُسكر الأعداء،
كان يدور عليهم...
وكل واحد كان يشربه حتى الثمالة.
لكن الشعبَ الذي عانى كثيرًا،
الذي عاش في القيود والسلاسل،
في عهد جميع القياصرة،
في عهد جميع السلاطين،
ظلَّ يحلم بالحرية.

الحرية التي غنّت عنها كل الجداول،
وعنها كانت أغنية الرياح،
سمع الصغار كلمة «الحرية»
من الأمهات عند السرير.
نطقت بها شفرات الخناجر
وأسماء الأبطال البواسل،
هامت بها آلاف السنين
زورنا آشوغ[46] وأغنية الرعاة.

«الحرية» – مع هذه الكلمة
مات الجيهيت والعجائز الحكماء.
«الحرية» – كلمة أوصى بها
السلفُ للخلف، وأوصى بها الآباء
للبنين!

كانت حلماً منذ آلاف السنين
وأغنية بلا بداية ولا نهاية.

---

(46) - آشوغ كلمة تركية الأصل لها لفظ آخر آشيك: يقابلها بالعربية على الأرجح عاشق أو عشيق والمقصود هو الشاعر الغنائي الشعبي في بلدان آسيا والقوقاز الذي يغني الفلكلور (مطرب شعبي).

الحرية – نور: يصبح الناس عمياناً

حين يغيب عنهم وجهُها الصبوح.

مرّتِ الأيام.

وفي صخورنا الكئيبة

راح يكبرُ كلُّ جيل

على ذلك الحلم القديم،

وراح يسير في نفس الطريق.

وحين هزّت طلقة مدفع «أفرورا»

العالمَ البالي في يوم خريفي،

ردَّدت جبالُنا مع البلاد

صدى ذاك الدويِّ.

وبانَ وجهُ الحرية حيّاً

لأهل الجبال وليس خيالاً –

وجاءت روسيا السوفييتية الجديدة

من وراء التلال لكي تساعدهم.

لم تأتِ بأوامرِ من القيصر

مع حاشية من الوزراء والسفراء–

جاءت في معاطف القوميسارات،

في قبعة بوديونوفكا[47]،

وفي سِتَر البحارة.

جاءت إلى بلادي الغالية

وتحقَّق الحلم الثمين...

حلم – حرية!

هي ذا تبتهج في المؤتمر الأول

لفقراء الجبال.

* * *

في المؤتمر الأول لكادحي الجبال

اجتمع أناس من مختلف الأجيال،

وقد زينت المنصة بأكاليل

من أزهار نهاية فصل الخريف.

كان الوصول إلى المنصة شبهَ مستحيل –

فالقاعة مزدحمة جدًّا.

بصعوبة اتسعت لجميع المندوبين.

هناك اجتمع ممثلو الشعب،

كاد الرأس يدور من كثرة الخوذ

---

2 - بوديونوفكا – التسمية الشعبية لِ اللباس الذي أصبح زيّاً رسمياً في الجيش الأحمر خلال الفترة 1919 – 1941

وقلنسوات القوقازيين،
هناك المزارعون والرعاة،
هناك محاربون وبأيديهم بنادق.
في ذلك المؤتمر جلس كأصدقاء،
ربما لأوّلِ مرّةٍ أبناء من اللاك
والليزغين[48]،
هناك جلسنَ لأول مرّة
النساء الجبليات مع الرجال
على قدم المساواة.

هنا، جلست إلى يميني اثنتان من شعب الأنديك.
وتجرأتا على رفع حجاب ال «تشوختو»
كيلا يَعُدْنَ ويضعنَه من جديد أبداً،
وكي ينظرن إلى الناس بأعين مكشوفة.
في القاعة شيوخ وشبّان،
فاليوم تسود هنا الصداقة،
وتسود المحبة والحرية،
يسود هنا الوفاء لروسيا،

(48) - اللكيين والليزغينك: أقليات عرقية في مناطق القوقاز الشمالي.

والكراهية للأعداء الكثيرين.

التقت على المنصة الخوذة مع الباباخا...
وراحت ترفرف على المنصة لوحات عريضة
من القماش طرّزته نساء من بلدة ميكراخا[49].
وسجادة كبيرة عليها صورة إيليتش[50].

روسيا السوفييتية تقود نحو الأمام
شعوباً من مستنقع الجهل.
ولأول مرة بات الناس يفهمون
أنَّ الحلم المنشود يتحقق.
لن يعيش الشعب بعد الآن
في الجهل ولن يحني ظهره
تحت الحمل الثقيل.
لأن روسيا السوفييتية: مشعلٌ –
ينيرُ دربَ الناس.

---

(49) - ميكراخا – بلدة في داغستان.
(50) - إيليتش: المقصود لينين.

استقبل ممثلو العمال والفلاحين
بعاصفة من التصفيق
كلمات قالها القوميسار:
«داغستان سوفييتية مستقلة».
انتشرت تلك الكلمات
في أنحاء داغستان،
راح أهل الجبال يهنِّئون أنفسهم
ويرددون هذه الكلمات بافتخار.
وصلت إلينا كلمات البلاشفة
متجاوزة التلال والمنحدرات
في طريقها...
عمَّ الدفءُ في الساكلا[51]
التي غابت النار عن موقدها لفترة طويلة.
وشملنا أنا وأمي.

كما وصلت الكلمات إلى الأعداء أيضًا.
يُحكى أنّ جهبارَ الجبان - قاتل عمّي،
اضطرب في ذلك اليوم،

(51) - الساكلا – هي البيت المبني من الحجارة في القوقاز

ومات الجبان رعبًا هناك

في ثغر الجبل.

نعم، ستبقى تلك الكلمات البسيطة

في ذاكرة داغستان لقرون!

والآن ...

راح ممثلو الشعب يصغون

وقد وقفوا في أماكنهم:

الحرية تتحدث إليهم!

القاعة ممتلئة والأبواب مفتوحة.

وهناك، في الصف الرابع من المقاعد،

وقف أبي هادئًا وقد راحت تسيل

دموع الفرح على خديه.

قد لا تتكرر من جديد

المشاعر التي تختلج يوماً،

مثلما لا تتكرر ثانية أبداً

المعركة الأولى ولا الحب الأول.

تحدث في حياتنا هنّات،
يمرُّ في عمرنا مثل هكذا يوم،
حين تنهض أمام عينيك
كل حياتك خلال ساعة أو لحظات.

كل حياتك...
أية مناظر تخطرُ ببالك الآن يا أبي،
ولِمَ تجمّعت على جبينك
التجاعيد العميقة؟
بماذا أوْحَتْ لك الذاكرة
في تلك اللحظات،
أنت، يا مَن كانت حياته حلمًا رهيبًا؟
يمرُّ شريطُ الحياة أمامك،
فتضطربُ للذكريات.
ذكريات طفولة صعبة،
وندبة على البدن،
ذكريات فتوّة من دون خبز ونار.
عن مغامرات،
وعن أخٍ لم يعشْ حتى هذا اليوم المهيب.

ذكريات عن البيت حيث

هي الأشغال كثيرة الآن،

وعني، أنا طفلك،

الذي تريد أنْ تضمَّه إلى وجهك

الذي لفحته الريح...

لكن لا...

بعيداً تتواري تلك الأفكار.

لتكن معركة جديدة،

فالرصاص من كل صوب،

ستتفهم الزوجة والأولاد،

وقد صاروا كباراً وسيغفرون

لأنه لم يأتِ إليهم قبل عام،

وربما أكثر من عام.

فطالما الأرض تحترق...

طالما فيها أعداء للشعب –

قتلة الإخوة والأصدقاء.

«أريد أن أكون هناك، حيث لهيب المعركة أشد،

وعليكم أن تساعدوني» –

هذا ما قاله أبي.
ومع هذه الكلمات قصد
القوميسار في ذات الليلة.

* * *

في جبال داغستان
ثمة مكان يُدعى سومادا.
لن تصلَ إليه سيرًا على الأقدام،
فالطريق تقطعه سلسلة من الجبال.

لا يوجد طرق هناك، وهناك انهيارات ثلجية.
هناك شلالات ووديان، حيث لن تصل
مركبة ولا عربة الجرّ،
والخيِّال لن يصل بسهولة.

هناك عدوٌّ أشدُّ خبثًا -
إنه السمُّ الكبيرُ للعادات -
هناك الماضي يعرقل حياة الناس.
لكن هناك يوجد الشعب.
ويجب على الشعب أن يفتح عينيه

وأن يمسح الدموع.

يجب بناءُ حياةٍ جديدة هناك،
يجب أنْ يُوضَعَ حدٌّ للاقتتال الدامي.
وإلى هناك أرسلوا أبي في ذلك اليوم
كي يكون رئيساً لمجلس الثورة.

انتفضَ الحصان من جديد وفُكّ اللجام،
ومن جديد راحت الحوافرُ تدقُّ حجارةِ الطريق.
غابت عاصمة الجبال خلف الظهر،
وصار الآول العزيز بعيداً.
طارَ الأبُ عبر الطرقات والمنحدرات،
كان متعباً من الضباب والمطر.
كان يحمل تكليفاً من مفوّض الشعب
وضعه تحت قبعته المجعّدة.

* * *

كنتُ حملاً وديعاً بلا «قرون»،
ماذا بإمكاني أنْ أعرفَ وأنْ أفهم!
كنتُ صغيراً!

وهل عالَمُ الطفل كبير؟

جناحُ بيت وسقف وسرير.

في السنة الأولى كانت لي شجوني.

كان عمري سنة وكنت محقّاً

إذ كنت أغفو كلما هُزِزتُ،

كي أعودَ وأطلب الطعام

ما أن أفتح عينيَّ.

نما الطفل.

وسرعان ما رحتُ أجلس في كلِّ يوم

عند المساء على ركبتي والدي،

وكنتُ مستعداً كي أسمعَ إلى ما لا نهاية

قصةَ عام مولدي.

كنتُ ألتحفُ ببطانية،

دون أنْ يغمضَ لي جفنٌ طوال الليل،

لتنتعش في مخيلتي

كلُّ أحداثِ تلك السنة.

وأدركتُ أنه يجب عليَّ
أنْ أرويَ حكايةً
عن الألم الذي بدأتُ به الملحمة
كما رواها عليَّ أبي وأمي.

وها أنا في كلِّ مرّةٍ أقلّبُ
فيها سنوات مضت منذ زمن بعيد،
أدرك: أبي، لقد كنتَ محقاً،
ولكَ مني جزيل الامتنان!

كم أنا سعيد لأنك مشيتَ
في طريق مستقيم
في حقبة الأيام العاصفة،
كان الدرب وعراً،
ولكنك كنتَ شيوعياً حقيقياً
في ساعة امتحان صلابتك!
صلابةً وطهارة لمناضلين بسطاء
لكنهم عظام، حملناها كالأمانة
من آبائنا ومن إخوتنا الكبار.

نحن شيّدنا المصانع.

شققنا دروباً وَعِرة.

غيّرنا وجهَ الأرض.

كان يصادف أننا لم نستطع

زيارة الأهل على مدى سنوات.

حين انطلقت الصواريخ إلى السماء

وبدأت معركة طاحنة من جديد،

لم نكن نحن أيضًا نجلس قرب المواقد

ولم ندفِّأ أيادينا فوق الرماد.

1948 - 1950

انتهت.

ثمانيات

1

تحية إلى الأرض، لأصدقاء روحي،

الذين صاروا قلّةً عند النهاية.

كم عانيتُ من ظلم الاقرباء ،

ولكني لن أقول بحقّهم كلمة بغيضة.

شكرًا للحب، للموسيقى وللكلمة،

وسوف أسكتُ عن التفاهات والمتاعب.

لا أتمنى الشرَّ لم ارتكب الشرَّ،

ولكن أن أتذكرهم ليس بي رغبة.

* * *

2

ثمة لدى الناس ثلاث أغنيات مقدّسات

تضمُّ أحزانَ الناس وأفراحهم.

واحدة منها أكثر بهاء من الأخريات–

تلك التي تصوغها الأمُّ فوق مهد صغيرها.

والثانية – أغنية الأمِّ أيضًا

تغنيها فوق نعوش أولادها،

وهي تمسح بيديها على الوجنتين الباردتَين،

أما الأغنية الثالثة – فهي باقي الأغاني كلها.

* * *

3

أيها العالَم، أنت كالراقص المحترف،

ترقص الليزغينكا بشكل رائع.

تأمل من حولك لدقيقة –

فالمصائب والمآتم في كل مكان.

أيها العالم، أنت كالمطرب السكران،

تصرخ بالأغاني الصاخبة.

توقّفْ أخيرًا ولو لبرهة،

فَأنت تجرح الروح بصراخك وحسب.

* * *

4

عندما قسّم الرب العليُّ العقولَ،

فقد أغفلك أنتَ لسبب ما.

وعبثاً أنت حزنتَ بسبب ذلك،

لأنه لم يمنحك حتى الإحساس بالحسد.

ليس ذنبُ الشاعر الموهوب،

أنّ الربَّ العليَّ منحه الإلهام.

ربما يُسْعِدُك أنْ تزعجه دوماً،

لكن كلماتك لن يأخذها أحدٌ على محملِ الجد.

***

5

ثمة شعراء بين علماء الفيزياء،

وثمة علماء وسط الشعراء.

يمنحُ العالَمَ النورَ والحقيقة

عملهم الخطير وأرقُ الليالي.

يتلألأ البرقُ فوق الرأس.

نحن، الشعراء وعلماء الفيزياء،

نموتُ في سن الأربعين من داء الأشعة،

وبسبب الحماس المفرط جدًّا.

***

6

ثمة شعراء – أبناء الحقبةِ،

وآخرون – مرتبطون بالخلود...

والأشجار كلّها، جيدة أم سيئة،

لا بدَّ وأن تُغيِّرَ شكلها.

وإذ تشعر من أين تأتي الرياحُ،

تبدِّلُ الأشجار لونها، إلّا الصنوبرةِ:

تبقى ممشوقة وخضراء دوماً

تحت ثلج الشتاء وفي قيظِ الصيف!

***

7

كلُّ صفحات الحياة رائعة،

وكلُّ شيء في هذا الكتاب صحيحٌ وذكي.

ولكي تنبت سنابل القمحِ من جديد،

تستلقي في الأرضِ حبّةٌ يابسة.

حين يهطل مطر الربيع في أي مكان،

ترى العشبَ ينمو بقوّة في المروج.

وحين تلمعُ الدمعةُ في عينِ الشاعرِ،

تُولَد عنده القصيدة ساحرة!

***

8

كانت لدى فتى من حيّنا

زوجةٌ ذات شعر أسود،

في ذلك العام، حين بلغ كلاهما العشرين،

جاءتِ الحربَ وفرّقت بينهما.

وها هي زوجة البطل العشريني

تجلسُ قرب الدار وقد شابتْ،

وها هو ابنهما الذي يحمل نفس الاسمَ العزيز،

قد صار أكبر من أبيه.

رباعيات

1

أدركُ تحت سماءِ داغستان،

بينما أعبرُ آخر مضيق:

باكراً جئتُ كشاعر،

وكنبيٍّ - جدًّا متأخر.

***

2

عجباً، قلْ لي يا أيها الإنسان

لماذا تُكلِّمُ الأشجار والجبالَ؟-

«مفيدٌ لنا جميعاً أنْ نحاوِرَ الحكماءَ،

فقد خبروا كلَّ شيء خلال قرون»

***

3

«دعني أغنّي واسمَعْ نشيدي

حتى النهاية، أيُّها العصفور!»

«إذا كانت لديك روحُ المطربِ حقاً،

فلتصمتْ أنتَ حين أغرّدُ أنا!».

* * *

4

أخصائي تنويم مغناطيسي

هناك، في الجبال، وُلِدَ شاعر،

أقسم، كان مُنوِّماً مغناطيسياً بالفعل.

في كلِّ مرّةٍ يَقرأُ فيها أشعاره،

كان يُنوِّمُ الجمهور غيرَ الحذِر.

* * *

5

يوبيل

لنحتفل بيوبيل الشاعر،

لديه الألقاب والمناصب والأوسمة.

بيدَ أنَّ هناك مصيبةً واحدة:

ليس لديه أشعار تليق بالمناسبة!

* * *

6

حول نشوء الإنسان من القرد

لكي يتحوَّلَ القردُ إلى إنسان

تطلَّبَ الأمرُ لا قرنا، بل كلَّ الأبد.

ولكن بلحظة واحدة، يا للغرابة،

يمكن أنْ يتحول الإنسانُ إلى قرد.

* * *

7

أياً كان الذي تقابله في الطريق،

عدّوا كان أو صديقاً،

فهو مثلك تماماً إنسان.

لا تنسَ ذلك وأنتَ تحمل خنجرك!

* * *

8

أرجوكم، أيها الناس،

كرمى لله:

لا تستحوا من طيبتكم!

لم يعد ثمّة أصدقاء كثر في هذه الدنيا.

فَاحرصوا ألّا تفقدوا أصدقاءكم!

* * *

9

بماذا أحلمُ تحت قبة السماء؟

بكلِّ ما كنتم حلمْتم أنتم أيضًا:

أن يكون الخبزُ أرخص وأسهل

وأنْ تكونَ الكلمةُ أغلى وأثقل!

* * *

10

طالما أنَّ الشاةَ ستُذبحُ يومَ العيدِ،

لن يكون همُّها مصيرُ الجِلْد.

وما فائدة النحيب عند رأس الميت،

طالما لن يسمع ألحان الباندور[52] بعد.

* * *

11

كنتُ أضجُّ بالأوراق

يومَ كنتُ فتيّةً،

وها نحن واياك الآن

نندب معاً الفتوّة التي كانت!

(من سلسة نقوش على العصي الأنتسوكلية)

(52) - الباندور – آلة موسيقية شرقية...

من كتابات محفورة على الأبواب والبوابات

ادخلْ، يا عابرَ السبيل، افتح البوابة.

أنا لن أسألك: مِن أين أنت ومَن أنت ومِمَن أنت!

* * *

لا تقف، لا تنتظر، يا عابر السبيل، أمام الباب.

إما أنْ تدخل أو فـَ لترحل بسرعة!

* * *

يا عابر السبيل، لا تطرق الباب، أصحابَ البيت لا توقِظ.

ارحل - إذا كنتَ تحمل الشرَّ، وإذا جئت تحمل الخيرَ - ادخل!

* * *

لا تدقّوا البابَ، أصدقائي،

لا في ساعة مُبكرة ولا في ساعة متأخّرة:

إنَّ قلبي مفتوح لكم

مثلما هو بابي!

* * *

يا أيها الضيف،

لا تستعجل الرحيل، حبًّا بالله.

بل كلْ وخذْ قسطَك من الراحة،

لأنَّ أمامك طريقاً طويلة!

* * *

أيها المسافر، إذا لم تعرج على منزلي فليسقط البردُ والرعد على رأسك، البَرد والرعد.

أيها الضيف، إذا لم يرحب بك منزلي فليسقط البرد والرعد على رأسي، البرد والرعد.

من كتابات على شواهد القبور

لم يُعرف عنه أنه كان حكيماً،

ولم يُعرَف عنه أنه كان شجاعاً،

ومع ذلك انحنِ له:

لقد كان إنساناً!

* * *

افعل وقلْ ما تشاء،

يا مَن على قيد الحياة،

لكن القِ نظرةً إلى شاهدة

قبري بين الحين والآخر.

* * *

يحاربُ الجيهيثُ الكذبَ

طيلةَ حياته.

لكن الكذب ما زال حيّاً،

أما هو فقد مات!

* * *

لا مالاً ولا قطيعاً كان قد جمَعَ
الجبليُّ الفقيرُ المدفون قرب ذلك التلِّ.
لكن قصائده هي التي ينشدونها في مكان ما،
وعنه ينشدون بعض الأغاني في مكان ما.

* * *

راح ينتظر: سيأتي الربيع
وسوف يذوب الثلج.
لكن الربيع جاء وارتحل
دون أن يعرف.

* * *

هنا، تحت حجر إسفنجيٍّ
يرقد أخان شقيقان،
هيا، توقّف أيها الأخ – عابر السبيل،
لقد كنتَ الأخ الثالث بالنسبة إليهما.

كتابات محفورة على الساعات

إيه، يا صاحب الحظ العاثر،

لا تذرفِ الدمعَ مدراراً!

بغضِّ النظر عمّن هو المذنب،

نحن لا علاقة لنا بذلك!

* * *

أيها الشاعر، يا مَن تخلو قصائده من الصدق!

مع ذلك، نحن أكثر صدقاً منك!

* * *

كم تضجّون أيها الناس، كم أنتم عجولون.

نحن نضحك عليكم من على الحائط!

نقوش على الخناجر

تذكّر وأنت تستلم خنجراً:

الغمد هو أفضل مكان للخنجر!

* * *

الخنجر في يدِ الأحمق –

عديم الصبر.

والخنجر في يدِ العاقل –
يتأنى!

* * *

قد يكون الخنجر حارقاً
مع أنه باردٌ كالثلج.
فهو لا يلِدُ أطفالاً،
لكنه يخلّف يتامى!

* * *

لستَ بحاجة للخنجر
لكي تستسلمَ.
أمّا إذا كنت تريد النِزال
فاستلّهُ من غمده.

* * *

طالما أنّك لا تسبِّب للآخرين
ما لا تطيق أنت الصبرَ عليه،
لن يكون ثمة مبرِّرٌ عندك
لكي تخرجني من غمدي!

زخارف على قرون لشرب الخمر

املأ القرن للضيف
مرة وثانية وخمس مرات،
لكي يتمكن هو من البوح
بكلِّ ما يرغب بقوله!

* * *

يلعبُ الخمرُ أحياناً دورَ السيف!

* * *

قد لا يعرف الربُّ في بعض الأحيان
كلَّ ما سمعه قرنُ الخمر!

* * *

اشربْ بقدر ما تريد – قليلاً أو كثيراً،
لكن بشرط أنْ لا تنسى طريقَ العودة إلى البيت!

* * *

يحقُّ لكلِّ واحد أن يشرب،
المهم أن تعرفَ: مع مَن،
لأي مناسبة، وكم؟

* * *

أمدحُ الرغبة بشرب الخمر.

ربما، بقصدِ الهناء في العيش.

لكن أكثر فائدة أمراً آخر:

أن تمتنع عن الشربِ بتاتاً.

نقوش على المواقد والمدافئ

متى أصبحت القدمان دافئتين تصبح الروحِ مُشِعَّةً!

* * *

ليس عبثاً أن تبدأَ الحكايات

التي تنتهي بمقتل الأعداء

منذ الطفولة، بالقرب من الموقد.

* * *

دفء الموطن الغالي أشدُّ

من دفء الجمر الذي يحترق ببساطة في الموقد!

* * *

مصيبةٌ بالنسبة إليك، صديقي،

يا مَن لا يخفق قلبه.

وتلك مصيبتك، أيها الموقد،

أنْ لا تتأجج النار فيك!

نقوش على القناديل

القنديل أشبه بالقلوب:

حقًّا، لا بد من احتراقها - لكي تنير!

***

ليكن أنَّ ضوئي ليس بالساطع،

ولتكن قوته ليست بالعظيمة،

ولكن إذا ما غابت الشمس،

فإنِّي أكون عندئذٍ النجمَ.

***

البيت الذي لم يشعل الفانوس فيه ليلاً،

هو بيت صاحبه أعمى أو ميّت!

***

إنه ينير في الظلمة الظلماء،

وعليك أن تتخذ منه قدوةً:

أنِرِ الدربَ لجميعِ

مَن يمشي وراءك!

نقوش على أحجار الطريق

هكذا تُحيّي الدربُ سالكيها:

تستقبلُ الشبابَ بسخرية ماكرة،

وتودِّعُ الكهولَ إلى البعيد بأسى!

***

انظر للأمام، وكنْ طموحاً دائماً.

ومع ذلك، توقّف أحياناً والقِ نظرة

إلى المسافة التي قطعتَها من الدرب!

***

كلُّ الدروب – وهي كثيرة في الحياة –

لها بدايات مختلفة ولكن نهايتها واحدة!

***

إذا أردتَ أنْ تختصرَ الطريق،

فلترافقك أغنية وصديق!

زخرفات على الباندور والتشاغانا[53]

أنتَ تشاغانا ولست بخنجر،

ومع ذلك أنت أشد منه بأساً:

هو يقتل الأحياء

أما أنت فتحيي الأموات.

* * *

إنَّ أوتاري ملتحمةٌ للأبد مع أوتار روح صاحبي!

* * *

إذا فقدَتَ صديقاً – خذ الباندور وضمّه إلى صدرك.

وهو سوف يعيد لك صديقك للحظة!

* * *

لا تترك الباندور حين ترحل،

فهناك، في الغربةِ، سيجعل موطنك

وبيتك أقرب إليك..

---

(53) - الباندور والتشاغانا – آلتان موسيقيتان شرقيتان شائعتان في القوقاز وتركيا وبلا فارس...

نقوش على المهود

لا تضجّوا أيها الرجال،

فالطفلُ يريد أنْ ينام..

كفّوا عن الشراب وعن الغناء،

وعن إطلاق الرصاص في البيت!

* * *

ليس حكيماً مَن ينتحب هنا وليس أحمق من يضحك،

وهو ليس جباناً ولا شجاعاً، وإنما ببساطة قاطنٌ عندي!

* * *

طفلك يضجُّ

ولن يسمح لك أن تغفو،

لقد كنتَ أنت ذاتَ يومٍ كذلك،

وهو شبيه بك.

نقوش على صخور الجبال

ابكِ في ساعةِ الحزنِ

أيّها البطل، لا عيبَ في ذلك.

ففي لحظة الكدر

حتى الصخر يبكي!

* * *

عشقُ الفارس وبسالةُ النسر

لا يكترثان لعلو الصخرة.

* * *

البسالة تتسلق الجبل

أما اليأس فيهوي مِن أعلاه.

* * *

لا يؤذي الجرحُ المقدامين.

فالصخرة تحيا مائة ألف عام

برغم الندوب الكثيرة فيها!

نقوش على خشبِ الرايات

أيها الرجل، كنْ جديرًا

بأن تحمل الراية،

إذا كان السيف – جنديًا،

فإنَّ الراية – سريّة كاملة.

* * *

يسقط الفرسان في باحة المعركة،

لكن الراية لا تسقط-

لأنَّ الشعب بأكمله

يقبض على خشبة الراية!

زخارف على الكتب

الصفحة هنا أشبه بالنافذة، تسمح لمن يفتحها أن يرى العالم!

* * *

الكتاب – مرآة الحكيم. تنعكس فيه مزاياه!

* * *

الكتابُ يقودُ الأفواج

ويحتلُّ المُدنَ من دون قتال!

* * *

صديقٌ وفيٌّ وضيفٌ عابر،

يرفعُ شأنك عاليًا،

ينير لك الدنيا ويكشف الأسرار –

ما عليك سوى أنْ تقبل الإصغاء!

* * *

حتى الحمير، توقّف الناس عن اعتبارها حميرًا

بمجرّد أنها حاولت القراءة!

من دفتر يوميات

نحن معشر الكُتَّاب أناسٌ حساسون للغاية. نشعر بالضيم وبالألم حين يهاجمنا أحد من دون وجه حق. لكن الكاتب الحقيقي يجب أن يشعر بالضيم أيضًا وبدرجة ليست أقل حين يقوم أحدهم بمديحه بدون وجه حق أيضًا.

* * *

كثيراً ما يُقارَن الشعراء بالبلابل. هذا ليس دقيقاً. البلابل تنتظر حلول الربيع لكي تنشدَ ألحانها، أما الشعراء فمطالبون أن يخلقوا بالأغنيات ربيعاً ساحراً، مسالماً، أبدياً لشعبنا ولجميع شعوب الأرض.

* * *

يبدأ الشعراء العظام بالحديث عن أنفسهم وعن مكانتهم في الشعر في نهاية العمر فقط. أما شعراؤنا الشباب فهم يبدؤون من هذا بالضبط!

* * *

لم يعد يُسمع صوتُ الطبل في عصرنا. فقد غطى على صوتِه ضجيجُ محفظة النقود – المصنوعة من الجلد أيضًا.

* * *

بعد أنْ حشوتُ السلاحَ لصديقي، أطلق الرصاصَ عليَّ.

* * *

كانت أصابعه تتراقص كما لو أنها تضرب على الدف حتى وهو يموت – إنه المطرب.

* * *

الإنسان الحقود لن يحلمَ بحبيبته حتى أثناء نومه.

* * *

الشجرة الكبيرة العتيقة تقي من حرِّ الشمس ومن المطر. هكذا هو الإنسان – الشيخ.

* * *

من قطَعَ النهرَ سباحةً ولو لمرّة واحدة، يعرف عن الحياة أكثر ممن راقب النهر طويلاً.

* * *

تُحزنني الشجرةُ التي لا تغني عليها العصافير.

* * *

الفتى غير العاشق لا تحق له كتابة الأشعار.

* * *

ليست هناك أمٌّ لا تجيد الغناء.

* * *

جَمالُ المرأة يمكن أن يخفي سبعةَ عيوب فيها.

***

كان أبي يقول: لا تمزح مع النار!

كانت أمي تقول: لا ترمِ الحجارة في الماء!





رسول حمزاتوف

احفظوا الأصدقاء

لم يُعرف عنه أنه كان حكيمًا،

ولم يُعرَف عنه أنه كان شجاعًا،

ومع ذلك انحنِ له:

لقد كان إنسانًا!

*

لا تدقّوا الباب، باستئذان،

أصدقائي!

إنَّ قلبي مفتوح لكم

كما هو بابي...


ISBN: 978-603-91777-3-9
9 786039 177739

WWW.PAGE-7.COM